

# الجزء الثالث

## أفريقيا الجديدة

« إنك عديم الشرف بقدر ما نود أن تكون مخلصاً،

فوجيل

قالها واستشهد بها الكاتب اينافوس مانشو.

obeikandi.com

## الباب التاسع

### أبناء حام

حينما عمل بقانون الفصل بين الكنيسة والدولة في فرنسا عام ١٩٠٥ استثنيت منه المستعمرات ، وكان معنى ذلك هو الاعتراف بأن المجهود في نشر التعاليم الدينية والأنجيل بين سكان أفريقيا الذي تقوم به البعثات التبشيرية إنما كان يسير في خدمة الاستعمار . وحتى الجمهورية الثالثة التي كانت معادية لرجال الدين قد استمكت بالصيغة القديمة التي تقول : عمل الله الحليم الذي يؤديه الفرنسيون .

ولكن ذلك لم يكن وفقاً على فرنسا وحدها ، بل إن هذا كان شأن جميع المستعمرات ، ففي آسيا كما في أفريقيا قام بمشروع جميع الدول الكبرى المستعمرة بتتبع القرد أو مهدوا له ، وأقوى مثل لهذا التدبير هو بعثة ليفنجستون . وحتى حين عدلت معاهدة برلين التي وقعت عام ١٨٨٥ والتي نصت على تقسيم أوروبا لأفريقيا . حين عدلت هذه المعاهدة سنة ١٩١٩ حسب اتفاقية سان جرمان أضيف إليها بند يضمن الحرية الدينية وحرية ممارسة جميع الأديان ، ويعطى هذا البند الحق للمبشرين بالدخول والطواف والإقامة في القارة السوداء .

وكان التعاون الذي قام بين الدول الاستعمارية والكنيسة المسيحية من شأنه أن يشير إن عاجلاً أو آجلاً الشك في نفوس الوطنيين الأفريقيين . خاصة وأن تجارة الرق التي نشأت منذ القرن السادس عشر كانت تمتد جنباً إلى جنب مع عملية التعميد ( أي أن العمليتين كانت متعارضتين ) . إن التوراة لتعلن أبناء حام كما أن الكنائس البروتستانتية وجدت أن كراهية الزواج للكتب المقدسة فيها ما يبرر ما قاله « شيخ أثنا ديوب » وفي غيره إذ نجد كلمة « ولكن » قد وردت في الفقرة المشهورة في أناشيد الآلهة الدينية وهي : « إنني زنجي أسود ولكني جميل . كل هذا تعبير تبريراً للتفرقة العنصرية في المبادئ .

ومن أجل هذه الأسباب فقد لفت تصرف المبشرين في أفريقيا انتباه المثقفين الزواج وأثار ردود

فعل عنيفة ونقد مرير عند البعض منهم وخاصة عند المؤلفين الذين يميلون تجاه الحزب الشيوعي . أما المسيحيون الزوج فكثيراً ما كان يحزنهم بل وتعذبهم فكرة الشعور بأنهم لا يعتبرون كاثوليكين أو بروتستانت بالمعنى الصحيح كثيرهم من الأوروبيين . فيقول : مارك إيلا في المجلس الملكي الذى عقد في الفاتيكان عام ١٨٧٠ ما بأتى : لقد تقدمت مجموعة من أساقفة المبشرين بملتص إلى البابا يطلبون فيه أن يرفع عن العنصر الأسود اللعنة التى تثقل على نفوسهم والتى كما يبدو قد نزلت عليهم من أبناء حام<sup>(١)</sup> .

### حركة فكرية وطنية زنجية ضد رجال الدين :

في كتاب « مجد أفريقيا وعظمتها » تناول المؤرخ الفانى « شارل دى جرافت جونسون » المشكلة من أصولها ومن أبعادها الحقيقية . فهو يذكر أولاً كيف استخدمت الإمبراطورية الرومانية التبشير الدينى لإرساء أسس سيطرتها السياسية وهى النقطة التى يصر عليها الأستاذ س . ب جروفر . في كتابه « غرس المسيحية في أفريقيا » وقد أورد جرافت جونسون فقرتين من هذا الكتاب هما : لقد عرفت الكنيسة بأنها إحدى الوسائل التى كونت الدولة فقد كان نشر الدين من دواعى تثبيت أقدام الإمبراطورية حتى إن الإمبراطور « جستيان » كان يتبع طريقة سياسية في أفريقيا تلخص في أن يعتنق المسيحية الرؤساء والملوك الأفريقيون الذين يتغنون مرضاته وقد منح الحكام مطلق السلطان ليجعلوا الناس مسيحيين بقدر استطاعتهم . وأما الرؤساء المحليون من أهل البلاد ، فقد كان يحلج على من يعتنق المسيحية منهم ملابس رسمية خاصة وألقاب شرفية خلال حفلات اعتناقه المسيحية . وكانت السياحة الرسمية هى الدعاية الدينية في سبيل نشر نفوذ الإمبراطورية . وقد لفت هذا التصرف نظر « سناج » فأبدى ذلك في أسلوب جاف فيقول : أنه كان من باب الاقتصاد أن يستخدم الإنجيل بدلاً من استخدام القوة العسكرية للمحافظة على الأراضي البعيدة .

وقد استرعى انتباه المؤلف مصاحبة نشر التعاليم المسيحية مع تجارة الرق ولكي يعطى « جرافت جونسون » فكرة عن الحالة النفسية والذهنية التى كانت عند أوائل تجار الرقيق في عهد الملك هنرى الملّاح فانه يسرد فقرة للمؤرخ البرتغالى « ايان دى ازورارا » شاهد بنفسه أول ترحيل لشحنة من العبيد في إحدى الموانئ عام ١٩٤٤ يصف هذا المؤرخ المنظر دون أن يخفى انفعالاته وشعور العبيد وانفعالاتهم التى تمزق نياط القلوب حين يودعون بلادهم . لقد كانوا مقسمين إلى مجموعات منفصلة

(١) ورد ذلك في دراسة لحاك إيلا في كتابه بعنوان « الكنيسة والعالم الأسود والمؤتمر المسكونى .

الواحدة عن الأخرى دون أى اعتبار لملاقات القرابة التى بينهم . ويختتم « ازورارا » عام ١٩٤٤ يصف هذا المؤرخ المنظر دون أن يخفى انفعالاته وشعور العبيد وانفعالاتهم التى تمزق نياط القلوب حين يودعون بلادهم . لقد كانوا مقسمين إلى مجموعات منفصلة الواحدة عن الأخرى دون أى اعتبار لملاقات القرابة التى بينهم . ويختتم « ازورارا » وصفه هذا بالسطور التالية والتى لها دلالتها لقد كان ولى العهد « دوق هنرى » يمتطى صهوة جواده القوى وكان يأنف من أن يصاحب المجموعة التى كانت من نصيبه وعددها حوالى ٤٦ عبداً وكان كل الذى يسره فقط أن هذه الأرواح قد أنقذت من الضياع . وفى الحقيقة لم يكن هذا الأمل عبثاً لأنهم بمجرد أن تعلموا لغتنا بقاء قليل جداً أصبحوا مسيحيين حتى أنى وأنا الذى أقضى هذه القصة رابت بعد ذلك فى مدينة « لاجوس » فى البرتغال أبناء من نسل هؤلاء العبيد قد أصبحوا مسيحيين طيبين ومخلصين كما لو كانوا من نسل أناس عمدوا فى عصر المسيح .

ورأى مؤلف كذب « مجد أفريقيا وعظمتها » فى هذا الاهتمام فى إنقاذ أرواح الزوج الوثنيين إنما هو خبث ورياء ، ذلك لأنه على يقين من أن هذا الجهد الذى يبذله البرتغاليون فى استخدام المسيحية إنما هو استخدام فى نشر أغراض تجارية أو استعمارية .

وبين شارل دى جرافت جونسون بعد ذلك أن الكنيسة قد وافقت على تجارة الرق غير أننا يجب أن نسجل أن البابا « بيوس الثانى » فى القرن الخامس عشر والبابا « بول الثالث » فى القرن السادس عشر - والبابا « أوربان الثامن » فى القرن السابع عشر وكذا البابا « بنوا الرابع عشر » فى القرن الثامن عشر قد احتجوا جميعاً على تجارة الرقيق . ثم يضيف المؤلف قائلاً : ولكن المسيحيين والبروتستانت تجاهلوا هذه الاحتجاجات . كما يذكر المؤلف أنه فى هذا العصر لم يصل علماء اللاهوت إلى اتفاق فى شأن المشكلة الرخيصة . ألم يكتب ج . أ . أوتينج فى كتابه « قصة سيراليون » قائلاً : إني أعظم أن قساوستنا لا يستطيعون أن يتفقوا فيما بينهم عما إذا كان للزوج أرواح ونفوس أم لا ؟؟ وطبعاً أنه إذا لم يكن لهم نفوس وأرواح فسيان أن يعاملوا كالحيلوانات ولكنى أرى لهم وأشفق عليهم مهما يكن .

أما من ناحية الاستعمار فإن دى جرافت جونسون يكتبى بسرد الفقرة التالية الواردة فى كتاب « المدد المساعد للشعوب الملونة » الذى كتبه « لوتروب دشتودارد » عام ١٩٢٠ حيث يقول : ليس هناك أدنى شك فى أن البيض الذين يمارسون الطقوس الدينية المسيحية أولاً يمارسونها يرجون ويتقبلون فى رضا تام نجاح جهود المبشرين فى أفريقيا . فإن عبادة الأوثان وسيطرة الشياطين التى

هى شعائر الوثنية لا يمكن أن تعيش طويلا ، وأنه سيصبح فى يوم من الأيام جميع الزوج  
إما مسيحيون أو مسلمون ، وفى حالة أن يصبحوا مسيحيين فإن الفطرية ستقيد وستصبح مستعدة  
لقبول وصاية الرجل الأبيض عليهم .

ويصور « آسان سلك » باكورة البدايات الناتجة عن الاستعمار البرتغالى والإسباني ، يصورها فى  
كتابه الذى عنوانه « الجغرافيا - الاستعمار - الثقافة » فيقول : كان من اليسر تبرير القسوة والوحشية  
اللتين مارسهما البيض التى اقتضتها ضرورة تحضير المتوحشين ونشر الحضارة بينهم وذلك بنقل  
العقيدة المسيحية إليهم ولذا فقد تبع المبشرون الغزاة والفاطمين .<sup>(١)</sup>

كما أن القرار نهائى الذى أصدره المؤتمر الخامس لتوحيد أفريقيا الذى عقد فى مانشستر سنة  
١٩٤٥ والذى تقدم به مندوبو أفريقيا الغربية ، فقد نص هذا القرار دون مواربة « أن المسيحية التى  
انتظمت فى أفريقيا الغربية تمثل فى استغلال سكان غرب أفريقيا سياسياً واقتصادياً لحساب الدول  
الكبرى الغربية »<sup>(٢)</sup> . كما أن الكاتب الزنجي الأمريكى « جيمس بلدفن » لم يكن أقل عنفاً إزاء  
الكنيسة المسيحية ، فقد كتب يقول عندما مر بلحظة فقد فيها إيمانه : لقد فهمت أن الإنجيل قد  
كتبته فئة من البيض كما أعرف أن كثيراً من المسيحيين يعتقدون أنى من سلالة حام الملعونة وأن  
مصرى سيكون إلى العبودية ، وأذكر أن القساوسة والأساقفة الإيطاليين كانوا يباركون الشباب  
الإيطالي النازح إلى أثيوبيا . وفى الميدان الأخلاقى فقد كانت المسيحية هى التقيم إلى أبعد حد .  
وبعد أن ندد المؤلف بمعجزة المسيحيين الذين يعتبرون عادات وأخلاق غير المسيحيين نوعاً من  
العادات والأخلاق المنحطة ، لذلك عمد المسيحيون لتغيير هؤلاء الناس وقد اتخذوا جميع الوسائل  
لهذا التغيير . نجد أن الكاتب يختم كلامه قائلاً : لن نبالغ إذا قلنا إن من يريد أن يكون ذا خلق متين  
فعليه أن يتعد تماماً عن تعاليم الكنيسة وعما حرمته ، فإن الكنيسة تمثل جميع الجرائم وجميع أنواع  
النفاق<sup>(٣)</sup> .

وكيننت كاوند « وهو ابن راعى الكنيسة لم يفقد إيمانه كما فعل جيمس بالدوين ولكنه ابتعد  
عن كل الكنائس مع احتفاظه بمسيحيته . ويفسر ذلك فى كتابه « ستحرر زامبيا » فيقول : كما سبق

(١) وردت بمجلة الرجود الأفريقى عدد ١٤ ، ١٥ ص ٤٧ .

(٢) إرجع إلى كتاب نيكروما بعنوان « نحو حرية المستعمرات » .

(٣) فى كتاب « المرة القادمة » النار . نلاحظ أن الكثير من الرعاة السود البارعين فى كفاحهم ضد التفرقة  
العنصرية فى الولايات المتحدة هم من القساوسة ونحس بالذكر منهم الأب مارتن لوتر كنج

أن قلت إنى قد ربيت فى عائلة مسيحية - والمعتقدات المسيحية جزء لا يتجزأ من روحى وقد احتفظت بعادة التوجه إلى الله فى صلاتى لكى أطلب معونته ولا أظن أنى تشككت يوماً فى حقائق الإنجيل . ولكن . . . ولكنى أساءل مع نفسى أحياناً فى جدية تامة : أيمجدنى حقيقة الله عن طريق صوت الكنيسة وهى على ما هى عليه من التنظيم الذى آراه فى روديسيا الشمالية الآن . فهذا المؤلف يهاجم الكنيسة لأنها ما فتئت تفصل بين البيض والسود عند أداء الطقوس الدينية ، وحتى القساوسة فإنهم يعامنون الزنوج على أنهم أخطئ منهم . ويختم حديثه قائلاً : لقد لفظ آلاف المواطنين الأفريقيين الكنيسة المسيحية ذلك لأن الكنيسة نفسها قد أهملت وطرحت جانباً التعاليم التى تبشرها من ناحية الجنس والسياسة .

ويهاجم بدوره « بارميناس جى سندوموكيرى » التفرقة العنصرية فى الكنائس المسيحية فيقول : لقد علم الإسلام الأفريقيين الذين اعتنقوه أن أداء الفرائض الدينية تجمع بين الأجناس جميعاً وتجعلهم يعيشون فى مودة وإخاء . فثلاً الهنود المسلمون لا يشجعون المعابد المنفصلة فى حين أن المبشرين المسيحيين حين امتد نفوذهم وأخذوا يبنون كنائس خاصة بالأفريقيين وأخرى خاصة بالأوروبيين .

وكانت شهادة المبشرين أنفسهم من أقوى الدعامات التى استند إليها المثقفون الأفريقيون فى التدليل على تواطؤ الكنيسة المسيحية والاستعمار .

منها مقال نشر بمجلة الوجود الأفريقى تحت عنوان « أفريقيا السوداء والأدب الوردى » وهذا المقال يوضح الأفكار التى تدور برأس قس كاثوليكي عمل فى أفريقيا حيث يقول : كان الأب اجوارد قسباً صغيراً ولكنه يؤكد لوالدته فى رسالة من رسائله العديدة بأنه على يقين من أنه يعيش الآن مع الزنوج وهم سلالة حام وأنه يأسف كثيراً لهذه السلالة الحامية .

ويشير شارل جرافت جونسون إلى مقتطفات من كتاب « المختارات الزنجية » للكاتب « رايونند ميشليه » الذى يدون بعض مشاعر مبشر بروتستانتي يدعى « هنرى بوند » حين كتب عن قبائل باروونجا<sup>(١)</sup> إذ يقول : إنى أكتب برغم أنى مسلم بالرأى السائد الذى يتحدث عن المساواة التامة بين العناصر البشرية ولكنى أعتقد أن الزنوج مخلوقات محنطة وقد خلقوا ليحترموا غيرهم .

وقد وجدت هذه الأحكام القاسية صدى فى الشعر والقصة الروائية الزنجية فى كل من أمريكا وأفريقيا . فترى الشاعر الأمريكى الزنجى « لانجستون هبوز » يكتب بأسلوبه اللاذع فيقول : -

(١) هذه القبائل تعيش فى جنوب أفريقيا .

آه . كم كان اسم يسوع المسيح غالياً ثميناً في ذلك الوقت الماضي  
وقد انقضى هذا الوقت . وإني على يقين من أن المسيح لن يموت من أجل  
ولكني أعلم أن يدي هاتين السوداوين في لون الطين أستطيع بهما  
تحرير البشرية السوداء

هيه . أيها العالم الكائن إنك لن تستطيع بعد الآن أن تقول لي  
« أنك ملكي أيها الزنحبي القدر

ولن يكون د . مانتيس أكثر تسامياً في ذلك الوقت تحت تأثير ألفاظ

المدنية والحضارة ولا تحت تأثير الماء المقدس الذي ينثر على حياة المستعبدين

ولم يكن المسيح نفسه ، بل هم المسيحيون الذين مالوا عن عهده وخانوا عهده فهم الذين  
أناروا حقد الشاعر « تشيكايا » في آخر ديوان له بعنوان « تاريخ مختصر » (مغتصب) كتب هذه  
الملاحظة « منفور » حين كتب مقدمة هذا الديوان فقد قال : لم يبق سوى خطوة واحدة بين اليأس  
والثورة . ولقد خطا تشيكايا هذه الخطوة . فهو بهاجم في قصائده القديسة آن ( في الكونغو)  
والمسيح ودين الفقراء الذي كان يجب أن يكون مؤمل وأمل المحرّمين بدلا من أن تستأثر به طبقة  
البرجوازية وثورته هذه تعبر عن مدى الحاجة إلى إيمان وتعتبر صرخة دينية فيقول :

عند مدخل كانشاسا

تجد تمثال القديسة آن والساعة الفريدة

واقفة على ظهرها ولكن لم يعد لها بشرة المسيح الرقيقة

ولا دمه الصافي

وفي موضع آخر يقول :

إني لا أضحك من حزنك أيها المسيح

يا مسيحي الرقيق الوديع

فالسن بالنس

فنحن سواسية يجمعنا إكليل الشوك

ونجد كذلك موضوع « القطة الزنجية الجديدة » للكاتب الهبتي « جاك رومان »

أن يهودا يسخر قائلا . إن المسيح بين نصيين كالشعلة الممزقة

على أعالي الجبال فقد كان يشعل ثورة العبيد

ولكن المسيح اليوم في بيت اللصوص تحوط ذراعاه كل الصقر الممدود في الكنائس  
ويعصى القيس في أقيّة الأديرة الأربع التي تدر عليه ثلاثين فلساً  
وأبراج الكنائس وأجراسها تنشر الموت على الكتل البشرية الجائعة

أما في ميدان القصة والرواية فقد كتب « مونغوبتي » قصتين جعل موضوعهما إفلاس المبشرين  
وكان عنوان القصتين « مسيح بلدة بومبا المسكين » و « الملك الذي حدث له معجزة » ففي القصة  
الأولى نجد أن المبشر في هذه المدينة قد لاحظ بعد انقضاء عدة سنوات على وجود الفتيات اللاتي في  
من الزواج في بيت التدريب الذي أنشأه المبشر لإعدادهن لشئون الزوجية بأن يقبضن من شهرين  
إلى أربعة شهور في هذا المنزل الذي خصص لمن ليتدربن فيه . لاحظ هذا المبشر أن كل فتاة كان لها  
عشيق وأن مدرس الدين الزنجي هو الذي كان يورد لمن العشاق مقابل جعل مادي يكسبه -  
فيدخله اليأس لأنه يرى أن الفسق الذي استشرى بين العنصر الأسود لا يمكن علاجه ولذا فهو  
يفادر أفريقيا .

وفي القصة الثانية يصبر مبشر عنيد على إجبار رئيس قبيلة متزوج من زوجات عديدات يصبر على  
أن يعتق هذا الرئيس المسيحية . ويقع هذا الرئيس مرات عديدة في نفس الخطيئة وهي خطيئة  
تعدد الزوجات . والكتابان مكتوبان في أسلوب ساخر . ويصيح الخادم الصغير الذي يقوم على  
خدمة قس بلدة « بومبا » قائلاً بعد أن سمع اعترافات الفتيات في بيت التبشير والتي انتزعت منهن  
قسراً تحت ضربات السياط فيصيح قائلاً . إنا عنصر عجب ولعله من الصحيح أننا ملعونون كما  
يقول الكتاب المقدس . حقاً إنه لا تحدث حوادث كهذه في بلاد نياقة الأب المدير . . . . .  
أما عن الكاتب « فريناند ابونو » فإنه يجعل من الزنجي العجوز الورع « ميكا » والذي كان  
مقتنعاً بالتخلي عن أراضيه من أجل البعثة التبشيرية ولكن الكاتب يجعل منه نموذجاً للشخص  
المسكين الذي خلع .

أما الكاتب « خرقيل مغاليله » من جنوب أفريقيا فإنه يلقي اتهامه للكنيسة أيضاً في صراحة  
ووضوح لا لبس فيها ودون قبول أى دفع لهذا الاتهام ، فهو يرى أن الكنيسة تبشر أولاً بأخوة زائفة  
فيقول : لقد أصبحت الكنيسة بالنسبة لنا رمزاً لتفاق الغرب . .

وعلى ذكر هذا التصدى للكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية يحسن بنا أن نذكر العداوة الصريحة  
التي قوبلت بها حركة حديثة العهد معادية في ميولها للشيوعية لدى بعض المثقفين الأفريقيين وهذه  
الحركة خاصة بإعادة التسلح بالأخلاق .

ويظهر « باكارى تريورى » مشاعره بخصوص هذه الحركة التى لاقت انتشاراً واسعاً فى أفريقيا يقول : خلال صيف عام ١٩٥٥ قدمت حركة إعادة التسلح بالأخلاق مسرحية أفريقية عنوانها « الحرية » على مسرح المدينة الجامعية فى باريس أمام جمهور يتكون معظمه من الطلبة وخاصة الطلبة الأفريقيين وقد لاقت هذه المسرحية رعاية وعناية كثير من الشخصيات الأفريقية من نواب برلمانيين ورجال قضاء ورؤساء نقابات وطلبة .

وبعرض موضوع هذه المسرحية الحل لمشكلات البلاد المستعمرة . فيثور النيجيريون المثقفون بالضرائب حينما يصدر قانون لضريبة جديدة وتنهز هذه الفرصة للقيام بهجوم عنيف على النظام الاستعماري وعلى البشرين المسيحيين . هذا هو القسم الأول من المسرحية . ولكن الانقسام والغيرة يظهران وتضطر الأحزاب إلى التناحر فيما بينها ، فيقف كل حزب فى وجه الآخر وحينئذ يدخل أحد المواطنين عائداً من مؤتمر عقدته حركة التسلح بالأخلاق حيث شطه الله برضائه فيشرح للناس أن الثورة الوحيدة والحقيقية هى أن يثور المرء على نفسه بعد أن يرجع إلى ضميره وهنا تتحقق الظروف الملائمة لتحرير الإنسانية فيعم السلام الأفراد جميعاً وكذا يعم الشعوب جميعاً .

وقد قابل الجمهور هذه المسرحية باستنكار شديد وخاصة الجمهور الأفريقى ، وذلك لأن هذه الحركة كانت تجهل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وترتكز فقط على العوامل للعاطفية وحتى على الانتهازية .

ويرى مغاليليه أن حركة التسلح بالأخلاق هذه هى التى قوامها ملايين الدولارات التى وضعها الدول الغربية الديمقراطية تحت تصرف القائمين عليها والغرض منها استثمار هذه الأموال فى القضاء على حركة الإضرابات والاحتفاظ بالوضع القائم بين العمال وأصحاب الأعمال .

وليس هناك أى شك فى أنها حركة التسلح الأخلاق التى عنها فريد بناند ابونو وتناولها بسخريته اللاذعة فى الصفحة الأخيرة من كتابه « طرق أوروبا » ، فى اللحظة التى يهرب فيها « برناباس » بطل القصة ويتابعه بعض الأوروبيين الخارجين من الملهى اللبلى نراه يقول : لقد تابعت الفرار جرياً بطريقة جنونية حتى جنوب المدينة حيث لاح لى ضوء منبعث من بيرة وسط هذه الظلمات فاتخذتها كنقطة انتهاء بعد قطعى لمسافة اثنين أو ثلاثة كيلومترات « إنها مركز النهضة الروحية » . . بهذه العبارة شرحت لى مجموعة من الشباب تفسير هذا الضوء حين لاحظت هذه المجموعة تلاحق أنفاسى من الجرى . وشدة لظى حين اقربت منهم . لقد كانت هذه البؤرة المضيئة إحدى حبل وخداع البيض . يجب على المرء أن يعترف بأخطائه على مسمع من الجميع . فهم يحبون

ذلك . إن مواطنينا الذين تراهـم هناك خلف المائدة البيضاء قد اعترفوا اعترافاً كاملاً بأن هناك من يجمعهم يتقنلون متزهين في كل مكان من آسيا وأمريكا من أجل اعتناق مبادئ هذه الجمعية « النهضة الروحية » في أوروبا . . . فقد تزايدت ضربات قلبي فانتحيت بعيداً عن الجمهور واتكأت على الحائط حتى أستجمع قواي وأنا أفكر في أتي أخيراً قد وجدت فرصتي ثم اقتربت ، ولكنني سمعت صوتاً صادراً يعلو فوق صوت الجمهور فقد كان صوت اعتراف امرأة يرغم أنها لم تكن لبقه في حديثها ، وقد أبصرت بعض الزنوج المتلئلي الأجسام يحسنون خلف مائدة فترجعت إليهم لأثير دهشهم يسرد قصتي ويألها من قصة حياة النهضة الروحية ؟ فابسمت وذهبت وأنا مشرق الوجه نحو هذا الجمهور الذي انشطر تلقائياً فلاحظت مقدم أحد البيض الأربعة الذين ينظمون هذا الاجتماع يتجه نحوي وعلى عيائه أمارات الترحيب مما يجعل المرء يعتقد أنه سيزيل عن كاهلي عبئاً - فجاءت بخاطري أول جمعة سيفتح الطريق أمامي إلى أوروبا .

#### الثاني التقليدي :

ومن الطبيعي أن وجدت الكنيسة بعض المدافعين عنها من بين المثقفين الزنوج المسيحيين وغالباً ما يكونون من بين المتحمسين للقومية وللوطنية . وما على هؤلاء الكاثوليكين الزنوج أو البروتستانتين منهم إلا أن يبرهنوا على أن المسيحية ليست معادلة ولا مساوية للاستعمار وأنه على النقيض فإن الوطنية تسائر المسيحية . ولذا اهتم الأب « جان زو » وهو رئيس أساقفة مدينة ياوندا في كتابه « نحو حركة وطنية مسيحية في الكاميرون » بشرح وتنفيذ المعادلة الثنائية الآتية :

الوطنية تعادل الشيوعية

الكاثوليكية تعادل الاستعمار

ولم يجد لذلك من برهان أكثر من كلمات أحد الأساقفة في مؤتمر « كيبوس » عام ١٩٥٣ فقد قال : إن عهد الاستعمار يسير في سرعة إلى نهايته وإن الكنيسة لتتظر في رضا كامل اللحظة التي تستطيع فيها الشعوب المحتلة أن تتحكم في مصائرها وتدير شئونها بنفسها وعلى المدنيين ألا يمتنعوا عن الاشتراك في الحركات الوطنية التي تهدف إلى مزيد من الحرية السياسية فإن تأثيرهم سيكون كبير الأثر ، وسيجنب البلاد الخراب الذي لا يمكن إصلاحه والذي قد يحدث إذا تركنا هذه المنظمات ميداناً يرتفع فيه المحرضون على الفوضى .

وهناك كاتبان لم يتطرق الشك مطلقاً في إحساسها العميق بالوطنية الصادقة وظلا في الوقت

نفسه على تفانيها نحو الكنيسة وتمسكها بعقيدتها الدينية . هذان الكاتبان هما الكاتب الداهومي ( في أفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية ) البرت تيفود جريه والكاتب الروديسي ( في أفريقيا الناطقة باللغة الإنجليزية ) ثدانا متجى سيهولى . فالأول كاثوليكي والثاني بروتستانتي وقد عكف الاثنان على دراسة مشكلة العمل الذى قام به المبشرون .

كلاهما مقتنع تماماً بمسيحيته مخلص لها حتى أن « سيهولى » قد رقى إلى منصب قس في الكنيسة . كما أن الاثنين على يقين من أن الروح الاستعمارية هي المحركة في الماضى وفى المستقبل لبعض المبشرين . إذ يقول الكاتب « تيفود جريه » في اجتماع للمجالس الدينية : هناك تناقض تام بين نظام الحكم الاستعماري المبني عادة على الكذب والبطش وبين المسيحية التي هي دين شامل يتسم بالحقيقة والحب والتفتح . وقد كان عنوان خطابه هذا في المجلس الديني هو : الكنيسة ومشكلة الاستثمار في أفريقيا السوداء .

ويذكر هذا الكاتب في أول الأمر جميع ما وصلوا إليه من آراء في انعقاد الجمعية الدينية الذى تم في مدينة ليون برئاسة الكردينال « جريله » عام ١٩٥٥ ، والذي أثبت أن : حركة التبشير والتوسع الاستعماري مستقلان كل منهما عن الأخرى وأنه من الخطأ أن يربط الإنسان بين بقية التبشير وبين الاستثمار ولكن « تيفود جريه » يعقب على هذا قائلاً : من المؤسف أنه توجد أحداث عديدة وآلاف من الأمثلة في التاريخ الحديث ليدل بها حتى يستطيع تخفيف وطأة النظرية القائلة بأن الكنيسة ليست مرتبطة بالاستثمار ومن ثم يحلل المؤلف الأسباب الأساسية التي دفعت لمثل هذا الوضع ، وضع المبشرين ، والذي يكشف عنه في كتاب « عبقرية المسيحية » للكاتب « شانويريان » الذى يقول فيه : لقد أعطت اتجاهات وأنشأت نوعاً من العقليّة الجامعية كانت ولا تزال الكثير من المجالات التبشيرية تحمل خصائصها . . كما نجد الكاتب يسرد هذا الرأي عند الكاتب الفرنسي لامينيه الذى يقول : لقد قدر في مصير الجنس البشرى بأن العنصر الأبيض سيخرج من قيوده الحديديّة شيئاً فشيئاً في حين أن اللغة القديمة التي انصبت على رأس سلالة حاتم كما جاء في الكتاب المقدس من أنهم سيرمقون في العبودية الدائمة . ولكن « تيفود جريه » يذكرنا في نهاية حديثه بالتوصيات التي صدر بها المنشور البايرى والذي أصدره البابا يوا الثانى عشر عام ١٩٥٦ بالموافقة على حركة تحرير المستعمرات .

ويكتب « سيهولى » من جانبه فيقول في فصل من كتاب « أفريقيا النائرة » تحت عنوان الكنيسة المسيحية فيقول :

إن الكتاب المقدس ينقد الأفريق من قبضة الحرافات والشعوذة التي تقضى على شخصيته ، كما تنقذه من السحر ومن القوى الأخرى التي تحول دون تقدمه . كما أن نفس الكتاب المقدس يعين الأفريق على تثبيت شخصيته وثقته بها والاعتداد بنفسه ضد الدول الكبرى الاستعمارية . كما يصر المؤلف على الكفاح الذي قامت به الكنائس المختلفة ضد التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا مستنثا منها كنائس البوير التي مازالت تدّين بالعنصرية .<sup>(١)</sup> -

ومع ذلك فإن الكاتب يلاحظ أن بعض المبشرين الذين يعملون في إطار استعماري قد اتخذوا موقفاً استعمارياً تجاه الأفريق ووقفوا حائلاً بينه وبين تحقيق حلمه الكبير : الاستقلال . كما يهاجم الكاتب آراء رجل من كبار البروتستانتين هو الدكتور « شفايرز » الذي قبلت أعماله في أفريقيا بإعجاب شديد . ذلك أن شفايرز يعتبر الأفريق كأنه طفل وأن الرجل الأبيض هو والد الطفل . وهذا هو الخطأ الكبير الذي يقع فيه معظم الأوربيين . فإن شفايرز يقلل من قدر الرجل الأفريق حين يصفه وكأنه طفل وذلك ليبرر وصاية الرجل الأبيض عليه وفرض سلطانه على أفريقيا ، وأن هذا التفكير يعتبر من أكبر الإهانات في حق الأفريق . ويشير الكاتب « سيهولي » إلى ما جاء على لسان شفايرز في كتاب له حيث يقول : إن الزنجي طفل ولا يمكن أن ينقد الطفل شيئاً دون استخدام السلطة . ومن ثم فإنني بالنسبة إلى السود قد وفقت إلى صيغة جديدة أحاطهم بها وهي أنني أخوكم .. هذا صحيح ولكنني أخوكم الأكبر<sup>(٢)</sup> .

وبلخص « سيهولي » الآراء المتضاربة المنتشرة في أفريقيا الجنوبية عن الكنيسة في الحوار الآتي :

في ذات يوم دار نقاش بين اثنين من الوطنيين في جنوب أفريقيا حول الموقف غير السلم في (١) في نوفمبر سنة ١٩٦١ أعلن رعاة على جانب من الأهمية يمثلون الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستنتية معارضتهم للتفرقة العنصرية وكان أهم من فيهم هو د . ب . ب . كتب استاذ اللاهوت بالمدرسة الدينية في استيلين بوش اندي دون في الكتاب الجماعي الذي حددته الاحدى عشر شخصية هذه بعنوان « نعمل مؤجل » فيقول من المفهوم والمعروف أن كنائس البوير موالية للتفرقة العنصرية الشاملة مادام هذا الانفصال يضمن للمجموعات المختلفة حقوقها كاملة . ولكن مثل هذه التفرقة ليست ممكنة مع الأسف في هذه الفترة من تاريخنا فإن مناصري التفرقة قد أعلنوا دائماً أن سياستهم تستطيع أن تنقذ المدينة البيضاء في أفريقيا الجنوبية مع أن العكس هو الصحيح (عدد لندن بتاريخ ٦٠/١١/٢١ بالتيمز) .

(٢) ورد في كتاب شارل ر . جوى بعنوان البرت شفايرز من مجموعة منتجات أدبية ص ٨٥ وقد نقد في عصف كل من بير ورينه جوسيه - العمل الطي الذي مارسه شفايرز في كتاب أفريقيا والافريقيون ص ١٦٠ .

أفريقيا الجنوبية وكان أحدهما يتم كل عمل تبشيري أيًا كان نوعه فيقول : هل ترى أن المبشرين حين حضروا إلينا وقالوا « صلوا » ولذا قد أغمضنا أعيننا وفي نهاية الصلاة حين قلنا « آمين » وجدنا الكتاب المقدس بين أيدينا ولكن . . . كانت بلادنا قد ضاعت منا أثناء الصلاة - فيجيء الثاني قائلا : حين استول الأوربيون على بلادنا حاربناهم برماحنا ولكهزم تغلبوا علينا لأنهم كانوا يمتلكون أسلحة أقوى وأحسن وأفتك - وعلى هذا فرض الأوربيون سلطانهم علينا ضد رغبتنا ثم جاء المبشرون في الوقت المناسب وزودونا بمادة متفجرة نستطيع بها محو الاستعمار . . . أعطونا الكتاب المقدس فيسفل هذا الكتاب ما لم تستطع رماحنا أن تفعله . .

وفي الختام يعتقد « سبول » أن القومية الأفريقية مشبعة تماماً بالمبادئ المسيحية ونذكر أن غاندي كان يعتقد في أن الموعظة التي ألقاها المسيح من أعلى الجبل قد أثرت في نفسه تأثيراً كبيراً . ويتفق كل من تيفود جريه وسيبول على مديح العمل الإيجابي للموس الذي قامت به الكنيسة . فقد أشاد الاثنان بأهمية المجهود الذي بذله المبشرون في نشر التعليم ، وكذا المجهود في معرفة لغات الأفريقيين والذي ساهم فيه المبشرون مساهمة كبيرة

وفي ميدان الأدب نجد أيضاً قصة زنجية تهدف إلى نشر تعاليم الكنيسة في حين أن غالبية الأدب القصصي الزنجي كان يهدف إلى فضح وإشهار إفلاس العمل التبشيري ، وهذا ما عني به في أول الأمر الكتاب الأول للنين كتبوا مؤلفاتهم باللغة المحلية في اتحاد جنوب أفريقيا مثل توماس موفولو أو آرثر نوتال فول . فإن موفولو حين كتب كتابه عن الزعم الزنجي « شاك » فقد اعتبر أن العقاب الذي لقيه هذا الغازي الذي ينتمي إلى قبائل الزولو ما هو إلا قذبة لوثية . وقد كتب موفولو عدة روايات أخرى يجسد فيها للمسيحية مثل « للمسافر نحو الشرق » وهي قصة تاريخ أحد زعماء قبائل السوند الذي منافر بحثاً عن أرض الله . وقد أنقذه من الغرق ثلاثة من البيض الذين لقنوه رسالة الإحسان للسيد المسيح . كما أن قصة « فول » الذي كان يكتب بلغة مستعمرة الكاب الهولندية ، وعنوان هذه القصة هو : في « مناهي الذهب » وموضوعها سرد قصة كفاح البطل ضد خطايا المدينة الحديثة كشراب الخمر والدعارة وكيف أنه ينادى بانتصار المبادئ الأخلاقية المسيحية الصارمة كملاحظنا ، فإن « جاليز جاهن » يصف الجيل من المؤلفين (من جنوب أفريقيا) الذين يخدمون المبشرين وأعمالهم بصفة تحط من قدرهم فيقول : هذا أدب التلاميذ النابهن . أما بينز سولزر فإنه على عكس ذلك يعتبر الأدب في أفريقيا الجنوبية إبان الربع الأول من القرن العشرين أنه العصر الذهبي لأدب قبائل النيتوان الاسمين للكبيرين في هذا المضمار الأدبي هما موفولو ودي بلاتيحي

وأنها كان مصدر الوحي في هذا الأدب بالنسبة لبعض المبشرين المسيحيين وأنها كانت بالنسبة لبعض المبشرين مصدر الفولكلور الأفريقي . حتى أن بيتر سولر قد جمع مجموعات من الشاء التي قيلت في حق المبشرين . فقد عني يجمع هذه الأمثلة من المؤلفين الجنوب أفريقيين . أمثال أ . س جوردان ، و . ر . ت جابافو ، س . ي نزا . س . م مولينا .

إن قصة نزا « رجل من أفريقيا » تعتبر في الحقيقة حصصاً على الفضيلة . فهي قصة تاريخ حياة شخص ، فتجد أن البطل في هذه القصة يقول في بادئ الأمر عندما وصل الأوربيون إلى قريته : إن الأوربي مرادف للتفرقة كما أنه لا يكن لنا شعوراً أخوياً ولكن الأوربيين يبنون مدرسة ونجد « تهنودو » بطل القصة حين يصبح رئيس القرية نجده : يغضب غضباً شديداً حين يهرب أولاده من المدرسة وكان من نتائج هذا الموقف أن بدأ أهل القرية يفهمون ويلتزمون لدى الشفع الذي جلبه الأوربيون لهم من وسائل التعلم ومعرفة السيد المسيح أيضاً .

والروائيون الناطقون باللغة الفرنسية نجد أن « دافيد ألتو » قد كشف عن سحق الحرافات الوثنية ومضارها في قصته التي عنوانها : ابن الصم : التي يرد فيها المصائب التي حلت بزواج وزوجته إذ كانتا ضحية من ضحايا الخداع وعمليات النصب والاحتيال التي يقوم بها بعض كهنة الوثنية وقد وجدا السعادة في اعتناق المسيحية . كما نجد رواية الكاتب النيجيري ت . م ألوكو بعنوان « رجل واحد وزوجة واحدة » تنحو نفس الاتجاه .

### الملاك الأسود :

كان من جراء قيام الاستعمار بنشر المسيحية أن جعل بعض الأفريقيين يرون أن الدين المسيحي دين عنصري أجنبي عنهم يحاولون جاهدين فرضه عليهم ، ولما كان المسيح من السلالة البيضاء كما ثبت تاريخياً مثله مثل رسله وقديسه في الكنائس فقد صبغ ذلك المسيحية بصبغة العنصرية التي تؤمن باللعنة التي تقع على أبناء حاييم .

حتى أن كثيراً من شعراء الأنتيل وشعراء أفريقيا كانوا صدى لهذا الشك . فترى في قصيدة الشاعر الأنتيلي « بول بنجر » بعنوان « لقد نسي الله أفريقيا » مثلاً لهذا الشك إذ يقول :

هبط الله يوماً إلى الأرض فاستاء من مخلوقاته وموقفهم من خالقهم

فأمر بالطوفان ثم أنبت الأرض نباتاً جديداً

وبدأت الأرض تعمر عمراناً بطيئاً عن طريق سفينة نوح

وبدأت الإنسانية تصعد في عصور لا نور فيها إلى عصور لا راحة فيها

لقد نسى الله أفريقيا

لقد خلص المسيح الإنسان المخطئ وبني كنيسته في روما . وسمع صدى صوته في الصحراء  
وقامت الكنيسة على المجتمع وقام المجتمع على الكنيسة يساند أحدهما الآخر فأقاما المدينة  
حيث خضع لها الإنسان في هدوء . لقد خضعوا للحكمة القديمة ليهذبوا من غضب الآلهة  
القدامى

التي لم تمت بعد فقد كانوا يقدمون كل عشر سنوات بعض الملايين من الضحايا ، لقد نسى  
الله أفريقيا .

ولكن حين لوحظ أن عنصراً من البشرية لا يزال يدين لله بجزية من الدم الأسود لذكوره  
بذلك . فاستترفهم وما زال يستترفهم حتى إذا ما طالب هذا الجنس بمكانته بين العناصر البشرية  
عينوا له بعض المقاعد . فجلس عليها وغرق في سبات عميق . ومد المسيح يديه فشح فوق رؤوسهم  
المجعدة وبذا أنقذ الزوج ، ولكن ليس في عالمنا هذا بكل تأكيد ولكن . . . فتحت أبواب  
السموات للبطاء فتدفقت فيها جميع الزوج وصدرت كلمة السماء لكي تنهى المعجزة وتغسل  
الزوج من الخطيئة الأزلية ، وهناك سيتحولون إلى بيض حيث لا يتميز عنصر عن عنصر ( إلا ما نراه  
في الأفلام الأمريكية من تمييز )<sup>(١)</sup> فلا ملائكة أو قديسين سود .

ويصور الشاعر النوجوى ر . أ . ج أرماتو فردوساً أسود . ساخراً بهذا الوصف من الفردوس  
الأيض فيقول :

لقد كان في سالف الزمان

ملائكة سود مثل الخير الشينى

كما كان القديسون أكثر سواداً يرتلون

في هذه الحية المشحة بالسواد

والتي سيعيش فيها السود الذين يعيشون حالياً في هذه الأيام

وبعد أن أطلق سراح «جومو كيتا» بقليل في وجه أنصار العنصرية ومن يقومون برسم الصور في  
الكتب المقدسة ثار في وجههم (وربما كان لها نوايا تختلف عما فهم عنه) في خطاب ألقاه في بلدته

(١) وردت القصيدة بكتاب الشعر الجديد النجوى والملاجشى ص ٩٤ ، ٩٥ ويشير الكاتب (تاجر)

بلاشك إلى الفيلم الأمريكى «المراعى الخضراء» .

«تيفانا» التي تقع على حدود تنجانيقا شاكياً من أن : الملائكة يمثلها دائماً أشخاص بيض في هذه الصور في حين أن الشيطان يمثل دائماً في صورة زنجي له قرون وذيل<sup>(١)</sup> .

كما ظهر عدم الثقة (بالبعض) عند الكتل الشعبية الأفريقية التي كانت على صلة وثيقة بالمبشرين الأوروبيين - فقد كان المبشرون يطلبون من هذه الفئات العديدة إحراق أصنامهم وأن يتخلوا عن معتقدات آبائهم الأولين . وكان نتيجة لعدم الثقة هذه أن انتشرت الكنائس والمعابد الأفريقية التي أسسها المرسلون السود . حتى أن هذه الظاهرة الاجتماعية كانت موضع دراسات كثيرة ، ونخص منها دراسة « ب . ج . م . ساندكليم » في كتابه « أنبياء نيتو في جنوب أفريقيا » وكذا دراسة « جورج بالاندير » في كتابه « القومية والمعتقدات المسيحية في أفريقيا السوداء »

فكانت هذه الكنائس وفقاً للتخطيط الديني تبشرون من العصرية مضاد للعصرية البيضاء . فقد كانت تعلن بأن السماء كانت معدة منذ الأزل لاستقبال السود فقط . إما وفقاً للتخطيط السياسي فقد كانت تعاليم هذه الكنائس تزيد المطالبة بالاستقلال ومن هنا كانت مقاضاة القامعين على شئون هذه الكنائس .

وقد تزايد عدد هذه الكنائس الانفصالية في أفريقيا الجنوبية على وجه التخصيص - فنجد أن « ساندكليم » قد ميز بين الكنائس الانفصالية والتي سماها كنائس أثيوبيا التي ترمز لرغبتها في الاستقلال عن كل رقابة أوروبية تحت الاسم الرمزي المملكة الوحيدة التي سلمت من الاستعمار والتي بقيت قريباً من الكنائس البروتستانتية التي تم انفصالها وبين الكنائس الصهيونية التي أسسها بنو أسود كان قد تبنأ بحدوث انقلاب غامض سيؤدي إلى إعادة بناء المجتمع على أسس أكثر عدالة - وقد كانت نماذج هذه الكنائس نوعاً من مذهب توحيد الآراء الذي يمزج بين الطقوس الوثنية والمعتقدات المسيحية . ومن بين الأنبياء المشهورين كان بلا شك النبي الليبيرى « ولم فاز هاريس » الذي كان ينشر تعاليم الكنيسة من وجهة نظرة الشخصية في قرى عديدة من إقليمه وفي قرى ساحل العاج وساحل الذهب قبيل عام ١٩٢٠ .

وفي الكنفو البلجيكي ظل « سيمون كيانجو » خلال عشرين عاماً من المهادة والذي قدم للمحاكمة عام ١٩٢٠ وكذا سيمون مبادي . وفي الكنفو الفرنسي نجد « أندريه ماتسو » الذي نفي إلى تشاد عام ١٩٣٠ كما نجد « لوان سام » في الكيرون وذلك بعد الحرب الكبرى الأولى والمؤسس للكنيسة الوطنية الموحدة - كما مارست حركة يرج المراقبة نفوذاً كبيراً في أفريقيا الشرقية والوسطى .

(١) جريدة لوموند الفرنسية العدد ٣١ يناير سنة ١٩٦٢ .

وقد أفرد «جوكيتيا» فصلاً خاصاً لهذه الكنائس في كتابه المعنون (في مواجهة جبل كيتيا) فهو يرى أن هذه الكنائس نشأت بسبب عدم كفاية إعداد المبشرين من الناحية النفسية ، ولذا فهو يقول : لقد كانوا يعتبرون أن الأفريقى إنما هو كلوحة يمكن أن يكتبوا عليها أى شىء . كما يقول «كيتيا» أن الأفريقيين عندما قرأوا الكتاب المقدس لاحظوا أن عدداً كبيراً من شخصياته المشهورين وكذا القديسين قد تزوجوا بأكثر من زوجة واحدة ، ولذا فقد نشأ من هذه الثغرات في الكتاب وهذه التناقضات في التعاليم التبشيرية أن صارت هذه التعاليم سطحية لا تعدو الشفاه فقط ، فهي لم تتغلغل في القلوب ، وكان هذا الاستسلام يسمح بارسى الأطفال إلى المدارس فنشأت عن ذلك الحاجة إلى كنائس أفريقية على حد تعبير كيتياتا - وهكذا بدأت في كيتيا طائفة «فاتو فامنجر» «أى شعب الله» بدأت تخطط تعاليم قبائل كيكويو الدينية بتعاليم المسيحية - واستلهم الفكر من الثغرة الواردة في الكتاب المقدس ، فكرة تشجيع وخلق الوطنية الدينية الأفريقية وهذه الفكرة أو الثغرة في الكتاب المقدس هي : سيخرج أمراء من أفريقيا - وسريعاً ما سترفع أثيوبيا أكفها إلى الله وأن موقفهم سيكشف حتماً عن شعور قوى بالوطنية والقومية (هذا ما يقرره كيتياتا) .

وفي نهاية هذا الكتاب فإن المؤلف يقول : إن هذه الطائفة لا تزال في مرحلتها البدائية ولكن تطورهما سيشكل ميداناً للبحث مباحاً فيه دراسة علم السلالات البشرية وطبائعتها . ولا يتظر لهذه الزيادة السريعة المطردة من هذه الطوائف المسيحية أن تلاشى إذ أنها تسير في بعض الأحيان في طريق السياسة شيئاً فشيئاً . ففي عام ١٩٦٠ أنشئت في أكرا كنيسة أفريقية مؤسستها نياقة الأب «مسا» وهى التى عرفت في عام ١٩٦١ قديساً جديداً في شخص الرعيم الكنفولى المعتال «باتريس لوموبا» الذى أطلق اسمه من وقت قريب على إحدى الجامعات في روسيا وهذه الجامعة خصصت لاستقبال الطلبة الأفريقيين .

وداعماً في غانا فقد احتج رئيس الأساقفة الإنجليكانيين «بيتر» عام ١٩٦٠ على استخدام لغة الكتاب المقدس في صحيفة «أخبار غانا المسائية» إذ كانت تقارن الدكتور نيكروما بالمسيح . وبعد عامين من هذا الحادث طردت السلطات الغانية رئيس الأساقفة الذى خلف بيتر وهو الأسقف «روزفير» الذى نفذ في عنف الطقوس التى أحاطت بالرئيس نيكروما . هاجم ذلك أثناء انعقاد المجمع الدينى لرؤساء الطوائف الدينية في مدينة «الساحل» إذ قال «نيكروما» يعتبر نفسه إلهاً .

وقد صدر مقال في جريدة «تام تام» مجلة الطلبة الكاثوليك السود عام ١٩٦١ - يصور مشكلة هذه الكنائس المنشقة. كما كتب «بول رومبا» مقالا تحت عنوان «عدم ارتباط الطالب الكاثوليكي الأفريقي» غير أن الكاتب لم يخف عاطفة الرضا والاستملاح التي يحسها نحو المعتقدات والمبادئ القومية ونحو مؤسس هذه الكنائس. وكان يحس بوصمة العار لطريقة القمع التي عملوا بها وتعرضوا لها فيقول: لا يجب أن تؤخذ على أننا في يوم عيد (الباتيكوث) لأننا نريد أن نكون طلائع وحماة الثقافة الأفريقية الفريدة في مجابهة الغزو الأوروبي. ولا يجب أن ننهم بمعادة الأجنبي أو بالعنصرية المعكوسة (كما لو كانت العنصرية وفقاً على البيض فقط) لأننا نرفض التواطؤ والتعامل مع الاستئصال الثقافي المنظم والمربط بالاستعمار.

ولن أعرض أكثر من ثلاثة أمثلة :-

١ - أن «أندريه ماتسا» كان يقترح إنشاء وتأسيس طائفة دينية مستقلة مختلفة عن «دين البيض» وقادرة على مواجهة هذا الدين.

٢ - أن سيمون كييانجو ومن بعده خليفته سيمون يناديان بحث تأسيس كنيسة سوداء.

٣ - وأخيراً ظهور الكنائس الانفصالية بكثرة ابتداء من عام ١٨٩٠ في نيجيريا والتي كان شعارها «يجب أن تأخذ معادة الاستعمار الديني مكانها في الكفاح العام ضد الاستعمار» وجدير بنا أن نذكر أثر «ادوارد بليدن»<sup>(١)</sup> وهو من الزوج الأوائل الذين أوضحوا أهمية التجريد الثقافي. وقد كان يهاجم الكنائس المسيحية بسبب خطيئتها في التنازل والتخلي عن الثقافة. وكان يمتدح ويطرى طريقة إدماج المسيحية مع المعتقدات والمفاهيم الأفريقية.

وكان المؤلف يدافع عن نفسه بأنه يريد القيام بهذا الانفصال فيقول: هذه أقوال ومقترحات يبدو أنها تقوى حجج الذين يخشون من حدوث انفصال مبيت آت لا ريب فيه. فليطمئنا لأنه إذا كان هنا منحصراً في أن نجد للمسيحية في أفريقيا «ثوباً أفريقياً» ففضاضاً حيث يغرر جلدورها في مذهب توحيد الآراء السياسية والدينية وهو المظهر الأول للوطنية القومية، فإنه يجدر بنا بحق أن نجد لهذا المذهب صدى مشجعاً عند كل الذين لا يستطيعون البقاء جامدين أمام مستقبل المسيحية في أفريقيا فالثورة ضرورة حتمية وستتم مع أو ضد بلاد الغرب المسيحية.

وعلى نقض ما ارتكز عليه غالبية الكتاب والمؤلفين فإن نشأة جل الكنائس الأفريقية الجديدة

---

(١) بالرغم من أنه من سيراليون إلا أنه كان أول سفير ليبيري في لندن في القرن التاسع عشر فقد ألف كتاباً

عديدة منها كتاب «المسيحية والإسلام والعنصر الزنغى».

في غانا تبدو بوجه عام غريبة عن الحركة القومية الوطنية ، كما يؤيد ذلك الدكتور « س . ج . باتيا » مدير معهد الدراسات الدينية بجامعة غانا وعضو المجلس الدولي للبعثات الدينية وعضو المجلس العالمي للكنائس ، إذ يقول في كتابه « النية في غانا » مؤكداً دراسته : ليس هناك ما يؤيد بأن الشعور المناهض للأوروبيين أو ضد الغربيين قد لعب دوراً في نشأة هذه الكنائس . ثم يستطرد المؤلف في توضيح فكرته فيقول : فحينما صارت العودة إلى ممارسة العادات الموروثة عن الأجداد كبعث عادة تحريم مضاجعة النساء أيام الحيض مثلاً ، فإن سبب هذا الرجوع إلى هذه العادات إنما مرجعه إلى ما ورد في ( العهد القديم ) ولم يكن الأمر إذاً يتعلق بعادة من العادات الأفريقية .

صحيح أن الدكتور « باتيا » قد اتخذ موضوع دراسته هذه الكنائس الروحية التي جعلت من الإنجيل كتابها المقدس - وقد اتبعت هذه الكنائس الرأي السائد المسلم به لصوابه لممارسة الشفاء الحارقة عادة والتي كانت تتم خلال حفلات وجلسات الرقص أو الصلاة الجماعية والاحترام العميق للرمل والأنبياء المعاصرين .

لذلك عكف الدكتور باتيا على دراسة هذه الحالات بإمعان ويفهم - فإنه بعد أن تحدث عن جلسات شفاء حدثت في كنيسة ( الرمل الإثني عشر ) التي تنتمي إلى النبي ( هاريس ) حيث كان يستعمل الكتاب المقدس في طرد الأرواح الشريرة ، غير أنه يضيف قائلاً : وبالرغم من أني كثيراً ما حاولت ذلك من قبل غير أنه لم تواتني الشجاعة يوماً ما على أن أجعلهم يفهمون استعماله . فقد كانوا يستخدمون الكتاب المقدس كما كان القدماء يستخدمون الشعوذة أيام الوثنية . ويحتم كلامه القسيس الدكتور باتيا قائلاً : فإذا ما قارنا الكنائس الغانية هذه بما يشابهها من الكنائس التي ظهرت في أماكن أخرى لكان من الملائم أن نلاحظ البساطة والسهولة في تعاليمها ، ولعل مرجع ذلك أن أتبع لهذه البلاد البعد عن الضغط السياسي أو أنها تحييه تهاياً والذي قاست منه قاست منه بلاد كثيرة أخرى . وعلى أي حال فإن السبب هو أن هذه الكنائس لم تذهب بعيداً في وعودها ولم تنالغ فيها مثل الثروات الكبيرة التي كانت توزع مجاناً على المؤمنين بها أو مثل ادعاء القدرة على طرد الأوروبيين والعائتهم في البحر كما كان الحال بالنسبة لكثير من الطوائف المختلفة في أفريقيا الجنوبية والوسطى والشرقية . .

ولقد ظهر عدد كبير من الحركات الدينية المشابهة نسبياً للكنائس الأثيوبية في كثير من الجهات وخاصة في البيئة الزنجية في أمريكا . ومن أبرز هذه الأمثلة الديانة الفردية في هايتي ، وهناك أمثلة كثيرة أخرى مثل الكنيسة الأرثوذكسية الأفريقية التي أسسها «ماركوس جارف» التي تقرر أن

الملائكة سود وأن الشيطان أبيض . وكذا طائفة «الراستانيين» في جاميكا الذين يدعون أنهم من سلالة ملوك أثيوبيا . ولذا فهم يريدون العودة إلى أفريقيا ، وقد تأسست هذه الطائفة أثناء الغزو الإيطالي لمملكة النجاشي عام ١٩٣٦ .

والمختصون في القودية قد اتفقوا على أن هذا الاعتقاد (الخاص بأن الملائكة سود والشيطان أبيض) كان بالنسبة للزنج وسيلة للحفاظ على طابعهم وشخصيتهم الأفريقية من الناحية الثقافية وهذا حملاً مظهر من مظاهر الوطنية والقومية .

«لقد كانت طائفة القودية طائفة سياسية أيضاً» هكذا كتب الكاتب «جانيز جاهن» ثم يضيف قائلاً إن الرقصات الدينية هي الوسيلة الوحيدة للزنج التي يعبرون بها عن جوبلادهم .

وقد نشر الكاتب الإسباني «جوان جويشوالو» مقالا حديثاً عن جوبا تحت عنوان «الثورة الراقصة» في مجلة فرانس ايزفاتور في ١٩٦٢/٨/٩ دون فيه وصفاً للحفل وثى يشبه إلى حد كبير احتفالات الطائفة القيدوية وقد علق عليه بالتالي :-

لقد كنت أظن أن معارضة الكنيسة الكاثوليكية تمثل خطراً كبيراً على نظام الحكم . كما كنت أقرأ مستقبل كوبا في ماضي إسبانيا والأرجنتين ، ولكني أقرر أن مجموعة الشعب الكوبي بعيدة كل البعد عما يصدر من الكنيسة . فالشعب ليس كاثوليكياً كما لم يكن كاثوليكياً يوماً ما ، وأن المعتقدات القديمة التي لا أصل لها في أفريقيا فإنها ما زالت قائمة تمارس في الطبقات الفقيرة ، فهناك طائفة «اباكو» وطائفة «لوكوميس» تتصل احتفالاتها بالطائفة القودية ولها من الأنصار أكثر من أنصار الكاثوليكية . ولقد نشأت هاتان الطائفتان عند الزواج العيب وكان لبقاء المعتقدات الموروثة عن الأجداد درع وحماية ضد السيد الأبيض . وقد اجتذب كل من مبدأى المساواة والطابع التقدمي الذي تميز هذه الديانات والمعتقدات اجتذاباً كبيراً من الفقراء البيض وعلى ذلك فبعد إلغاء الرق انضم عدد كبير من البيض إلى هذه الكنائس الخارجة والتي كانت لا تمثل العنصر البشري المضطهد فحسب ، بل أصبحت تمثل الطبقات الاجتماعية المضطهدة أيضاً .

الغاتيكان يقف موقفاً معارضاً لفرنسا فيما وراء البحار :

إذا ما رجعتنا للحديث عن الكنائس الأفريقية فإننا نرى أن أنبياءها غالباً ما كانوا من عيول للدين المسيحي بل ومن تعلموا على أيدي المبشرين الأوروبيين برغم أنهم لم يصلوا إلى درجة كبيرة من العلم بالرغم من أن هذه لم تكن القاعدة العامة المتبعة غير أنها تنطبق بدون شك على الكنائس

الصهيونية أكثرهما تنطبق على الكنائس الأنثوية . والمتهمون إلى هذه الكنائس الأفريقية كانوا من طبقة خاصة من السكان قليلة التطور . ولكن مهما كان الأمر فإن الكنائس الأوروبية رأت أن المطالب القومية الوطنية تسجّه ضدها سواء أكان ذلك من جانب المثقفين أو من جانب الأنبياء القليل التعليم . ولم تكن تستطيع تلك الكنائس الأوروبية أن تظل جامدة أمام هذا الوضع ، هذا إذا أرادت أن تتابع مهمتها .

وبينما كان بعض المثقفين المسيحيين يمتنون أنفسهم بإصدار علم لاهوت خاص بالاستعمار على حد تعبير الكاتب «ر. كودجو» في مقاله بعنوان «الاستعمار والضمير المسيحي» الذي نشر في مجلة الوجود الأفريقي (عدد ٦) فإن تياراً فكرياً آخر كان يسير في عكس الاتجاه - وكان هذه التيار الأخير يستشري في الأوساط الكنائسية وفي الكنائس الكاثوليكية على وجه الخصوص ، وكان كما لو أن هذا التيار يعني الالتقاء بتلك المطالب .

وكما أوضح «كونجو» في مقاله إذ يقول : إن محركي حركة الدفاع عن الاستعمار قد نهلوا معلوماتهم وحججهم من مؤلفات قديمة إلى حد ما ، فمثلاً فكرة الحيز المشترك التي عرضوها وروجوا لها كانت مستقاة إلى حد كبير من كتاب لأحد تلاميذ القديس توماس ، الكوين وهو جرويتي إسباني (يسوعى إسباني) اسمه فرانسوا فيتوريا عاش في القرن السادس عشر .

وفقاً لهذه الفكرة وهذه العقيدة التي أشار إليها فيما بعد كل من البابا ليون الثالث عشر وكذا البابا بيوس الثاني عشر في عدة منشورات باباوية فالفكرة فيها أن تظل السلطة (سلطة الدولة) شرعية طالما كانت الدولة تعمل للخير المشترك لجميع رعاياها ومن هنا يتضح أن تطبيق هذا المبدأ إنما هو تطبيق لتبرير الاستعمار .

واستند رجل القانون وعالم الاجتماع الكاثوليكي «جوزيف فوليه» على هذا المعيار ، فقد ضمنه رسالته للدكتوراه بعنوان «حق الاستعمار» فقد كان يميز بين تعمير وإصلاح المستعمرات والاستعمار نفسه . فقد ظل النوع الأول وهو التعمير معمولاً به وصالحاً ، أما الاستعمار فقد كان مذموماً وموضع اتهام . وكان مبدأ «فوليه» موضع تأويلات كثيرة بدون شك . فقد رأى ر. كونجو أن هذا التمييز يبدو دقيقاً جداً لدرجة تجعله صعباً عند تطبيقه ، وإذاً يمكن أن يستخدم أيضاً للمحافظة على الدولة المستعمرة وعلى النقيض يرى «روبير يارات» الصحفي الكاثوليكي أن هذا المبدأ يحوى تبريراً معنوياً لثورة الشعب المستعمر حيناً يكون مستقلاً . وقد جاء هذا الرأي في مقال له نشر بمجلة الأكسبريس يوم ١٩٥٥/٢/٥ بعنوان «الكنيسة تقف ضد الاستعمار» .

أما عن الحركة المضادة التي تسير في اتجاه تحرير الأفريقي فقد عبر عنها في التاحتين السياسية والدينية . . . ففي الميدان السياسي ازداد عدد الأفريقيين الذين تولوا أرق المناصب الكنائسية . وفي الميدان الديني دأب القساوسة الأوروبيون والأفريقيون معاً على إيجاد صلات بين المعتقدات الدينية لدى قبائل البانتو وبين مذهب العدالة الإلهية المسيحية حتى يعملوا من هذا التقريب نوعاً من التكيف بين تعاليم المسيحية وبين الطقوس الكاثوليكية التي تمارس في أفريقيا .

ولقد أبد هذا التطور المنشور البابوي الذي أصدره البابا بيوس الثاني عشر عام ١٩٥٣ بعنوان «الذين يمجّدون الإنجيل» والذي أصبح هدف جميع البعثات التبشيرية في أن تكون الكنيسة مستبّة ومستقرة وعلى أسس ثابتة عند الشعوب الجديدة ، وأن يكون لهذه الكنائس تدرج وظائف خاص بها ويختار شاغلوها هذه المناصب من بين السكان المحليين .

ومنذ ذلك الوقت لم يعد رجال الكنيسة الغرباء (الأجانب) في الأراضي الأفريقية يقومون بإدارة البعثات التبشيرية ولم يعد لهم حق الاستمرار في معركة نشر الإنجيل إلا كما يقوم به الجيش الاحتياطي بالنسبة للجيش العامل .

وكان حتماً أن يثير هذا النص البابوي معارضات من لسوا منه مجرد نداء إلى استقلال المستعمرات ولأنه يسير ضد مصالح الدول الكبرى المستعمرة . كما أنه يقرر ويؤيد إحدى الحجج التي وردت في كتاب حمل عنواناً له دلالة الخاصة وهو «الفاتيكان» يقف موقفاً عدائياً من فرنسا فيما وراء البحار» للكاتب فرنسوا ميجان . ويؤكد هذا الكاتب في كتابه أن الكنيسة الرومانية تتخلى عن الحضارة الغربية لأن هذه الحضارة أصبحت مدنية وليست كنيسة - ويختتم الكاتب كلامه متسائلاً: أفليت الكنيسة في سبيل التخلي عن شيء ملموس ومضمون لتحصل على شيء وهمي ، وذلك بتضحيتها بفرنسا فيما وراء البحار وبأوروبا أيضاً في الحقيقة تبعاً للنظريات الحديثة والقرارات العاجلة التي أصدرها مجلس الدعاية بالفاتيكان . وهذه النظريات إنما نخدم مصالح الدول الأفرؤأسيوية المجتمع في مؤتمر باندونج .

ولقد أتاح كتاب فرنسوا ميجان هذا لمجلة الوجود الأفريقي نقطة الانطلاق لمقالة افتتاحية عن المشاكل التي يثيرها موقف الكنيسة ضد الحركة الوطنية في أفريقيا . فقد أظهر كاتب المقال مدى انزعاجه (وهذا طبعاً عكس ما كان يتوقعه فرنسوا ميجان من كتابه) من أن بعض المثقفين الأوروبيين يعتبرون أن المسيحية والغرب مترادفان ومعناها واحد . ولقد استشهدت مجلة الوجود الأفريقي بعدد خاص من مجلة «الفهم» الناطقة بلسان الثقافة الأوروبية وكان عنوان هذا

العدد «الحضارات والمسيحية» وقد أوضحت مجلة الوجود الأفريقى الهدف الذى يرمى إليه كاتبو هذا العدد الخاص ، ويتلخص فى أن «يرهنوا على أنه لا يمكن الفصل بين المسيحية ودعوة الغرب» وهي دعوة عالمية . وعلى هذا المقياس كان كاتب المقال يبدى انزعاجه وقلقه حين يرى بعض رجال الكنيسة الكاثوليك مثل نياقة الأب «غينو» يؤكدون عدم إمكان الفصل بين المسيحية ودعوة الغرب هذه ، وذلك فى كتابه المعنون «يقظة الشعوب الملونة» .

وكان الكاتب لهذا المقال يقول : إننا نشعر بأن هذا المؤلف الأخير الذى ينت مجلة «الفهم» أنه عضو فى المعهد البابوى للبعثات التبشيرية فى الخارج . هذا الكاتب يعتبر أن الأمر يتعلق بإتخاذ الغرب أكثر من إتخاذ المسيحية - ويبدو أن الصفحات الأخيرة للكتاب تعتبر يقظة الشعوب الملونة أكبر خطر يواجه القرن العشرين . وإدأً قلن تكون للكنيسة مهمة أكثر أهمية من إتخاذها الغرب . ويتلخص العمل التبشيرى فى أنه خطة دينية وغير مقبولة .

وقد عاد اهتمام محررى مجلة الوجود الأفريقى أكثر نشاطاً بمناسبة انعقاد المجلس الفاتيكاني الثانى . عاد اهتمامهم بالوجود الأفريقى فى الحياة الكاثوليكية . فقد دأبت على نشر التصوص التى كانت تصلها عن هذا الموضوع والتى كان يوضح فيها القساوسة والمدينون معاً مطالب الكاثوليك الأفريقيين . فنيا يختص بالطقوس الدينية أو على وجه التخصيص مشكلة اللغة التى تودى بها هذه الطقوس الدينية يتضح من قراءة هذا العدد من المجلة أن تلك المشكلة كانت هى كل ما يشغلهم إلى حد كبير . فإن (مارك ايلا) بعد أن يطرح السؤال الآتى : أفلا تجد الكنيسة نفسها فى مأزق لأنها قد أرادت أن تصبغ الزنوج بالصبغة الأوروبية ؟ نراه يطالب بعمل لغة الطقوس الدينية وما يتصل بلغة اللاهوت يجب أن يكون ذا صبغة محلية . كما كان الأب «نيوكا» يكتب أيضاً فيقول /أنه لا يجب إدماج الدين المسيحى فى أى ثقافة - بينما كان المجلرت مفتوح ومن ج يؤيدان مبدأ أن :أفريقيا المسيحية بعد أن بلغت رشدها يجب أن تنهج إلى الله بلغتها الوطنية المحلية . ونعرف أن الآباء فى المؤتمر المسكونى قد حققوا مطالب الكاثوليك الأفريقيين الخاصة باستخدام لغة البلاد فى القداس الذى يقام ويساهم فيه الشعب .

#### وقفات :

إن المنشور البابوى «مجدوا الإنجيل» الذى كان يسلم مبدأً جعل سلسلة الوظائف الكنسية فى أفريقيا . مقصورة على الأفريقيين كان نفس هذا المنشور يعطى تعليمات معينة بخصوص ما يجب

اتخاذها من مواقف فيما يتعلق بالوثنيات في أفريقيا ، فيذيع : أن الكنيسة لم تحتقر مطلقاً ولا استخفت بالمبادئ الوثنية وكل الذي فعلت إنها خلصت هذه المبادئ من كل خطأ أو دنس ثم أكملت وتوحيها بالحكمة . ولم تسلك الكنيسة سلوك من لا يعترم شيئاً كمن يقطع غابة يابسة كثيفة الأشجار ويحرقها ويدمرها ، بل وبينها ولكنها كانت كالبستاني الذي يقوم بعملية التطعيم فيغرس ساقاً لنبات طيب في نبات متوحش لكي يجعله يشمر يوماً ما ثمرة أحلى وألذ طعماً .

وعلى ذلك قام بعض المبشرين الأوروبيين بأبحاث في هذا الاتجاه باذلين جهدهم في إيجاد صفات متشابهة بين الأديان الأفريقية وبين المسيحية . ونذكر منهم نياقة الأب المحترم تريلز في كتابه «روح الأرقام في أفريقيا» وكذا نياقة الأب المحترم «تميل في كتابه «فلسفة قبائل البانتو» في الكتاب الأول الذي نشر في ١٩٤٥ يؤكد المؤلف بأن القزم عنده فكرة «الله» أوحته إليه وألهم بها كما ألهمت المسيحية تماماً . ويرد الكاتب فكرة تحليل الأساطير المتعلقة بالموت إلى فكرة الاعتقاد بأن الموت يرجع إلى خطيئة أساسية (وذلك وفق علم الكائنات وحقيقتها) يذكرنا هذا بفكرة الخطيئة الأزلية كما يصير الأب تريلز على تبعية الآلهة الثانويين للآله الأكبر وخضوعهم له . أما في الكتاب الثاني للأب تميل فإنه يبحث في استخلاص الخطوط العريضة لمبدأ فلسفي عن معتقدات قبائل الكنفو البلجيكي الدينية فراه يحلل هذه المعتقدات ويشرح نقطة اللقاء بين مفهوم القوة الحيوية (وهو مبدأ من المبادئ الأساسية في المعتقدات عند قبائل بانتو) وبين مذهب الصفع في المسيحية . ثم يبين الكاتب في كتابه أيضاً أن زواج أفريقيا الوسطى كان لديهم فكرة الخير والشر وكثير من المفاهيم الأخرى . ليصل من كل ذلك إلى أن قبائل البانتو بفلسفتهم الفطرية يعتبرون أقرب إلى المسيحية بأفكارهم من أي قوم آخرين .

ولقد اختلف المثقفون الأفريقيون في مدى تقبلهم لهذا الكتاب فنجد أن «البون ديوب» مدير مجلة الوجود الأفريقي قد أطرى في مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب . (لأن الطبعة الأولى من هذا الكتاب قامت بطبعها جامعة لوفان الكاثوليكية عام ١٩٤٥ في حين أن كثيراً من المثقفين الأفريقيين وقفوا ضد هذا الكتاب الذين رأوا فيه أنه يهدف إلى نشر التعاليم المسيحية على حساب الحقيقة العلمية . فلم يخف الأب تميل هذه الملاحظات ، بل اختتم كتابه بهذه الكلمات : إن حضارة البانتو ستصير مسيحية أولاً تصير مطناً» .

كما أن المنشور البابوي الذي صدر عن البابا ييو الثاني عشر وما تضمنته من تعاليم قد دفع القساوسة الزوج إلى دراسة الأديان في أفريقيا السوداء . ومن أمثلة ذلك رسالة الدكتوراه التي

قدمها الأب « فنست مولاجو » وعنوانها : الوحدة الأساسية لقبائل الباتو وعند الباشي «البابا رواندا والباروندى» والتي تواجه الوحدة الأساسية الكنسية . قدمت هذه الرسالة إلى جامعة الدعاية عام ١٩٥٥ . وكذا الرسالة التي قدمها الأب «اليكسيس كاجامى» وعنوانها «فلسفة الباتو والرواندى والحالئ الأكبر» وقد قدمها إلى جامعة جريجورى فى روما عام ١٩٥٦ .

ويسير فى نفس الاتجاه عدد من مجلة « اللقاءات » نشر بإشراف مجلة الوجود الأفريقى بعنوان « القساوسة الزنوج يتساءلون » ويشمل هذا العدد سلسلة من المقالات التى كتبها قساوسة من هايتى ومن أفريقيا مهتمين فى أن يجدوا فى معتقدات الأسلاف الأفريقيين المفاهيم والطقوس التى تتفق ووجهة النظر الكاثوليكية والتى يمكن للعمل التبشيرى الارتكاز عليها إذا اقتضى الأمر ذلك . ومن الدراسات المميزة والتى تستلفت النظر أكثر من غيرها دراسة فسان مولاجو وعنوانها « حلف الدم والمشاركة الغذائية والعهد الأساسية فى تناول القربان المقدس » فقد أبان فيها الكاتب أوجه الشبه والتقارب بين العادات الموروثة عن الأسلاف فى الكنفو وبين القربان فى الديانة المسيحية .

ولقد ذكر «مولاجو» أن حلف الدم يتم عقده بين شخصين يريدان الارتباط بصداقة مقدسة لا تنفصم عراها وذلك بأن يشرب كل منهما بعض قطرات من الدم المزوف من جرح طفيف يحدث عمداً فى الصدر . وتجمع قطراته على ورق شجرة - ثم يستطرد الكاتب قائلاً : يرجع حلف هذا الدم إلى نوع من التصوف عميق . . . فإنه الهبة الممتازة ، إذ يهب الإنسان نفسه ويندمج فى شخص صديقه ، فهو يدخل بيت صديقه ويستقبل كفرد من أفراد الأسرة فهو جزء لا يتجزأ من صديقه إذ أنه جزء من أعز شئ يملكه صديقه . . . المادة الحيوية فقد قدمها طواعية لصديقه . .

ويقوم الأب مولاجو برسم تخطيطى وكبرهان مماثل فى التحدث عن المشاركة الغذائية وخاصة مع الموتى فيختم حديثه قائلاً : يكفى الكاهن الذى يقدم القربان المقدس فى قبائلنا (الباتو) بتقليد معين لوجية الطعام حتى تتم المشاركة مع تقليد حلف الدم حتى يؤدى عمله الدينى . فقد نشأت المسيحية فى سر الدم وهى نجيا وترعرع فى سر الدم وأن الدم هذا هو الذى يؤسس ويفدى تضامنا ووحدها .

وأن المحاولات التى قام بها رجال الكنيسة الأفريقيون هؤلاء بتشجيع مما جاء فى المنشور البابوى عن البابا بيوس الثانى عشر كثيراً ما تلتقى بأبحاث إحصائى علم أصول السلالات البشرية الأفريقيين الذين استتجوا الاعتقاد فى وجود كائن أعلى فى الأديان الأفريقية ولو أن الروح الدافع الذى يحرك

الطرفين مختلف جداً . إذاً كان إحصائيو علم السلالات يرون في ذلك المفهوم خاصة برهاناً يؤكدون به أن الثقافات الأفريقية ليست أقل شأناً من الثقافة الغربية وذلك في حدود مدلول عدم الفصل بين المسيحية والغرب - ولكن مهما كانت أوجه الخلاف لهذا التقريب فليس هناك من شك في أن أبحاث هؤلاء الكهنة وهؤلاء العلماء في السلالات إنما ترجع لسبب واحد هو التعلق بالوطن والتعلق بأسلافهم الأفريقيين - وإن هذه الأبحاث تندرج مع اختلاف درجاتها في إطار تيار الفكرة الوطنية النابع من المثقفين الأفريقيين .

وأما من الناحية التاريخية فإن موقف الكنيسة الكاثوليكية من الحركة الوطنية الأفريقية لا ينحصر في أنها عرفت وتبأت بأن استقلال المستعمرات أمر لا مفر منه فحسب بل تعداه إلى فهم أن ظمناً الشعوب الأفريقية إلى التحرر ينطوي وراءه احتياجات ثقافية أيضاً لذلك فإنها بحثت في الميدان الخاص بها عن حل يراعى في نفس الوقت المظاهر السياسية والثقافية للحركة الأفريقية . . .

#### الإسلام :

لقد بلغت حركة نشر الكتاب المقدس في أفريقيا بواسطة البعثات التبشيرية مبلغاً كبيراً جداً وشملت حجماً مرموقاً ، ولكن الإسلام ظل منافساً له مكانته ومهابهته . فهو ليس فحسب في قطاعات الشعب الأقل تطوراً بل إن هناك نخبة أفريقية بأكملها متسكة بالإسلام ومتعلقة به برغم تشبعها بالثقافة الأوروبية - وتوجد اليوم في أفريقيا نهضة إسلامية ذات طابع معين تتحدث عن نفسها باللغة الفرنسية . مؤلفات «مالين هيباتابا والكاتب السنغالي «شيخ حميدوكان» ما هي إلا مظهر لهذا البعث الإسلامي ، فكلا الكاتبين من قبائل البيل .

ولقد خصص «أحمدوهيباتابا» بالاشتراك مع العالم الفرنسي في الشؤون الإسلامية مارسيل كوردير «كتاباً لأحد أولياء الله من المسلمين يحكيان فيه تاريخ حياة هذا الولي وتعاليمه وقد حمل هذا الكتاب عنوان «تيرنوبوكار حكم بلده باندياجارا» (وتشاء المصادفة المحضة أن يبحث الكاتب «مرسيل جربول» في نفس المنطقة (قبائل دوجون) عن فلسفة الوثنيات عند حكم آخر محترم في قومه هو «أوجوتيلي» .

في فترة خاصة وتحت ظروف غاية في الاضطراب وهي الظروف التي تلت انهيار الإمبراطورية (البيل - في بلاد ماسينا نتيجة لضربات الغازي السنغالي «الحاج عمر» في هذه الآونة قضى بيريوبوكار فترة شبابه . وقد كانت قبائل البيل مسلمين يتمتعون إلى طائفة القادرية الأفريقية وكان

الغزة السنغاليون يتسمون إلى الطائفة اليجانية . وكان تيرنوبوكارا ، فقد كانت عائلة أمه تنتمي إلى طائفة القادرية وأما عن أصل هذا الحكم فقد كان أجداده الأولون من أواسط السنغال وبعض أجداده أيضاً من قبائل البيل - وربما كان هذا الخليط في النسب وهذه الظروف المحيطة به هي التي خلقت في نفسه الميل إلى التسامح في كل شيء حتى تجاه الدين المسيحي نفسه . ولذلك يعتبر التسامح مظهراً أساسياً في تعاليم هذا الولي الحكم ، كما يشرح ذلك الكاتب هباتابا الذي كتب بخصوص إنشاء المدارس القرآنية التي أسسها تلاميذ هذا الحكم فيقول : انطلقت رسالة التسامح والإحسان والرفقة والحب - انطلقت مرة أخرى بين ربوع السودان . ففي نفس الوقت الذي كانت تنتشر في مناطق أخرى من ديار الإسلام رسالات التعصب والحقد كانت تتأخى أفريقيا السوداء التي اعتنقت الإسلام وتتأخى الدوائر السياسية والدينية وتعطي سلاً للعالم أجمع في الصفاء . فكهم (باندياجارا) هذا يشبه القديس فرنسوا داسيز في المولد المحمّد له أن يولد فيه وحتى تكون كلمته مطاعة يصغى إليها الجميع . فقد وضعت الجوهرة الذهبية في خيخته والقرط في الأذن .

وتخرج هذه الكلمة اليوم وتتعدى الحد الضيق وانتشرت خارجاً وصار لها أعوانها . وإن آخر فقرة من الكتاب المخصص لهذا الولي لا يمكن أن تكون صادرة عنا . فلنترك إذاً الحديث مرة أخرى لتيرنوبوكارا نفسه حيث يقول :

إني أتمنى من كل قلبي أن يحى عهد المصالحة بين جميع المذاهب الدينية على الأرض - هذا العهد الذي يستند فيه كل مذهب منها على المذاهب الأخرى لكي يكونوا قبة أخلاقية تحمي الأخلاق . هذا العهد الذي تعتمد فيه جميع المذاهب الدينية على الله وتلتقي فيه على ثلاث : الحب - الإحسان - الأخوة . إن الله واحد ولا يمكن أن يكون هناك سوى طريق واحد يؤدي إليه . . . إنه دين ولا تكون الأديان الأخرى إلا أشكالاً متنوعة من هذا الدين هو الحقيقة وأن قواعده لا تقوم إلا على ثلاث : الحب - الإحسان - الأخوة . إن هذه المصالحة التي سبق التنبؤ بها مراراً وأعدت لها القعدة ويتظرها الجميع . لماذا لا نسميها اتحاد الحقيقة .

حقاً إن اتحاداً يشمل الحقائق الأساسية الكائنة في العقائد الدينية المختلفة التي تنقسم الأرض سيكون له استخدام ديني أفسح مدى - وعالم أوسع بكثير ، وربما كان ذلك مساهماً أكثر من وحدة الله ومع الروح البشرية ومع وحدة الخالق في عالم موحد .

ولقد أطلق الكاتب السنغالي «شيخ حميدوكان» اسم تيرنوبوكارا (مؤسس المدرسة القرآنية والحكم السليم الذي سماه بتعاليمه) أطلقه على بطل روايته التي عنوانها «المغامر الغامض» ولا يبدو أن اختيار

هذا الاسم جاء محض المصادفة في هذه القصة التي تتضمن التعالم الصوفية .  
« سامبا دبالو » وهو ابن أحد النبلاء قد عهد به إلى تبرؤ ليؤديه . بقاء الأستاذ الحكيم من الإلحاد الذي يتصف به الغرب فيقول : لقد علمت أنه في بلاد البيض لا فرق بين الثورة على اليأس من الثورة على الله ولا يمكن التمييز بينها . ويقال إن تلك الحركة تنتشر وأنه سرعان ما تغطي الصرخة ضد اليأس العالم وتستغلي على كل صوت يسبح الله ( المؤذن ) ويخطئ المؤمنون إذا ظنوا أن اسم الله سيثير ضغينة الجوعى أيام حياتهم في الدنيا ، ولكنه من المؤكد أن مدارس البيض تعلم الإنسان كيف يربط الخشب بالخشب فهل يعلمون الناس كيف يبنون منازل تقاوم الزمن .  
يترك سامبا دبالو أستاذه الحكيم المعجوز ثم يذهب إلى باريس كي يدرس هناك الفلسفة . وفي خلال إقامته في باريس يبق موزعاً بين تعالم آبائه وبين الآراء الأوروبية الحديثة ، أى يقف حائراً تتنازع فلسفة أفريقيا الصوفية . وبين المادية الطاغية في الغرب . ولكن هذه الأخيرة تستأثر به وتتفوق ولو إلى حين ، يضاف إلى ذلك حتمية الصراع ضد هذه المادية التي تعيش وسطها المستعمرات .

وفي أثناء حديث له في باريس مع بعض الأصدقاء من الأتيل الذين قطعوا صلتهم بالعالم الأسود . نرى سامبا يقف في وجه الاعتقاد البائد بينهم الذي يقول : إن حاجتنا القصوى للغرب لم تعد تترك لنا مجالاً للاختيار بل تفرض علينا الخضوع حتى يأتي اليوم الذي نكتسب فيه الكفاءة والقدرة على السيطرة على الغربيين . يثور الطالب لأنه لا يستطيع تقبل هذه الفكرة لأنه من أصحاب الرأي القائل « إننا إذا قبلنا هذا المبدأ وسلمنا به فلن نستطيع مطلقاً أن نسيطر على شيء ما لأنه لن تكون لنا قدرة وكفاءة لنسيطر بها على هذه الأشياء وسيكون في فشلنا هذا نهاية للإنسان البشري في هذا العالم .

ولكن سرعان ما يخشى سامبا نخلى الله عنه لأنه قد فقد إيمان طفولته . فيستدعي والده . وحين يصل إلى مسقط رأسه يموت الحكيم بترونو . فيصر سادج القرية ( وسادج القرية رمز للقدر الذي يرضى التقاليد وهي فكرة المؤلف نفسه ) إلا أن يحل سامبا مكان هذا الحكيم ، ولكن الشاب يرفض . فيصحب السادج إلى نزهة ليلية ، إلى مقبرة الحكيم ومن ثم يتوسل إلى الشاب في أن يقبل ولكن الشاب يرفض للمرة الثانية وهنا ينهى السادج هذه المغامرة الغامضة بقتل الشاب . وبالرغم من جميع الشكوك التي تحيط بسامبا إلا أنه ظل متمسكاً بدينه مؤمناً به أقوى إيمان ، ونحس في ثنايا الكتاب كله للكاتب وكانه هذه الصلة القومية العميقة بالعقيدة الإسلامية .

ونلاحظ أيضاً الرجوع إلى فضيلة الدين الإسلامي في كتاب «المبار من الحرم» للكاتب محمد وجولوجو، إذ يعود الطبيب الأفريقي بطل القصة الذي أدمن الحرم إلى الفضيلة الإسلامية ويتعد عن الحرم وبذا يرد اعتباره .

ونستطيع أن نرى الكثير من المواقف في مضمار السياسة التي وقفها «ساردواتا» و«سوكوتو» ، نردها إلى مفهوماته الدينية وأن نرى فيها أمثلة على الاعتقاد في القضاء والقدر والذي ينسب البعض إلى الإسلام . ولهذا كتب بمناسبة احتلال القوات الإنجليزية لبلاده فقال : «مهما تكن الأسباب والأخطاء التي كانت سبباً في الهجوم على «كانو وسوكوتو» فقد كان البريطانيون أداة للقدر إذ كانوا ينفذون أوامر الله - ولكننا لا نجد أن هذا الطابع الإسلامي يتجلى دائماً لصالح الاستعمار . فنجد أحمد ويلا وهو الذي حج مكة سبع مرات قد كتب فصلاً كاملاً مليئاً بالحماس في زيارة الملكة إليزابيث لنيجيريا في عام ١٩٥٦ ، في كتابه الذي يسرد فيه تاريخ حياته نراه في موضع آخر من نفس الكتاب يستنكر في ألفاظ واضحة ثابتة العدوان الإنجليزي على مصر ويصفه بأنه اعتداء مؤسف لا يبرره أي مبرر ولا يستحق أن يوصف بالإعداد الفعال ولا بالتنفيذ المرسوم<sup>(١)</sup> . وقد عبر عن النهضة الإسلامية باللغة الفرنسية في أفريقيا السوداء عدة مجلات صدرت في دكار ومحرة باللغة الفرنسية منها مجلة «النهضة الإسلامية» التي يصدرها الاتحاد الثقافي الإسلامي وكذا مجلة «نور الإسلام» والتي يصدرها دورياً بعض الطلبة الأفريقيين المسلمين . واتجاه هاتين المجلتين يقدم ويكافح المزايم الباطلة الناجمة عن آراء دينية مترمة ترمت أعمى أو تطفراً دينياً يتسم بالجهل ، الأمر الذي يقف عقبة في سبيل التطور الحتمي .

---

(١) ثار الجزائري «عمار أوزيجان» على هذا الاعتقاد الخاص بالقضاء والقدر والذي يدعيه بعض الكتاب ويستخدمونه لأغراض معينة ، وذلك لتبرير الإبقاء على السيطرة الاستعمارية ، ثارت ثائره في كتابه «أفضل كفاح» وكانت ثورة الجزائر وحربها أكبر برهان استند عليها هذا الكاتب .

## الباب العاشر

### أفريقيا الكادحة

منذ بداية الحرب العالمية الثانية أصبح من المألوف في الصحافة وكذا في بعض الأوساط في العالم الغربي أن يسند أى مظهر من مظاهر النهضة السياسية في أفريقيا إلى الشيوعية ، وهذا نفاق وضيق يؤلف جزءاً من الدعاية التي تقوم بها الحرب الباردة والتي ترمى إلى الحط من قدر الحركة الوطنية الأفريقية وحتى تجعل العناصر المعادية للاستعمار في حزب العمال وفي المنظمات التقدمية تنفر من هذه الحركة ولا تساندها . ذلك لأن أحزاب العمال وهذه المنظمات معادية للشيوعية برغم حسن نيتها وتقبلها للآمال السياسية التي تنادى بها تلك الشعوب المغلوبة على أمرها . ( المستعمرة )<sup>(١)</sup> . هذه السطور التي دمجها « جورج بادموور » مرآة ناصعة تعكس جيداً الأهتمام الكبير الذي صوره الاهتمام الذي وجهته الإدارات الاستعمارية للحركة الوطنية الأفريقية فقد كانت هذه الإدارات الاستعمارية تعزوكل عمل من أعمال التحرر في المستعمرات إلى مصدر الاتحاد السوفيتي . ولما كانت جميع الدول المستعمرة (الاستعمارية) الكبرى منحازة للجانب الغربي فكان لزاماً بالنسبة للحركات الوطنية الأفريقية غير الشيوعية أن تتخذ مكانها بعيداً عن الميدان الشرقي خاصة وأن الوطنيين الأفريقيين قلما استطاعوا الاعتماد على العنف في التحرر وإن كانوا قد استفادوا حقاً وبطريق غير مباشر من الكفاح المسلح الدائر في الهند الصينية وفي الجزائر (ويؤكد فرحات عباس أن فكرة إزالة المستعمرات الفرنسية من أفريقيا السوداء إنما جاءت تحت ضغط أحداث شمال أفريقيا على فرنسا) . إلا أن هناك سلسلة من العوامل جعلت من الصعب على الأفريقيين أن يلتجئوا إلى أمثال هذه الحركات العنيفة . فلقد انتهت ثورة ملاجاش و ثورة ماوماو بالفشل .

فإن خبرة مؤيدي التحرر الأفريقي وعدد كبير من الأفريقيين اليساريين غير الشيوعيين وكذا

---

(١) وهكذا فقد استخدم القانون المناهض للشيوعية وإلغائها والذي صدر عام ١٩٥٠ في اتحاد جنوب افريقيا بصفة خاصة ضد الوطنيين السود فقط .

أصحاب المبادئ المتحررة في العواصم الأوروبية ستحرم الوطنيين من مساعداتهم القيمة لو أنهم طلبوا مساعدة موسكو . ومساندة هؤلاء ذات أهمية قصوى لهم .

ولقد كان هذا صحيحاً بالنسبة لكل من فرنسا وبريطانيا ، ونجد صدق ذلك التفكير (تفكير بادامور) عند « البرت تيفود جريه » إذ يقول هذا الكاتب الداهومي في الصفحات الأخيرة من كتابه « أفريقيا الثائرة » ما يأتي : إن استمرار الخلط في بلادنا بين الوطنية والشيوعية وهذا يعنى الترويج لقول نسمعه كثيراً من أن تقوم حركة وطنية في أفريقيا حتى يسارع بعض المبشرين ليشيروا إلى برائن من أصابع الشيوعية . وبواسطة هذا الادعاء المتحرف يكون من المحرم على المسيحيين أن يشركوا في هذه الحركة الوطنية ويكون من اليسور طبعاً على الإدارة الاستعمارية أن تضرب الأفريقيين الوطنيين بالأفريقيين المسيحيين .

وبالرغم من أن تيفود جريه يقصد في هذه السطور المبشرين المحافظين من وجهة نظره والذين تسارع الإدارات الاستعمارية في مؤازرتهم لأنهم دعائهم فإن حججه وإن كانت شخصية إلا أنها لا تختلف في جوهرها عن الأدلة التي قدمها « بادامور » .

وبالمثل فإن الكنائس الكاثوليكية كانت تحس ميلاً وانحيازاً إلى الجانب الأيمن - فإن الأحزاب الوطنية الأفريقية غير الشيوعية كانت تحس ميلاً إلى اليسار . وإذا كانت معاداة الشيوعية عند « تيفود جريه » المسيحي المتعصب لمسيحيته معاداة قوية وعميقة فإن موقفه مثل موقف « بادامور » يفضح عن خطط تكتيكية ضرورية اقتضتها الضرورات .

وفي الواقع فإن الرعب والخوف اللذين كانت تحسهما عواصم البلاد المستعمرة حين ترى نمو النفوذ الشيوعي في أفريقيا ، كان هذا الخوف نفسه كبيراً في رأى الوطنيين الأفريقيين حتى بدا لهم أحياناً أنه من الضروري أن يلوحوا بهذا الخطر ويعملوه كرمز للتخويف .

وظهرت هذه الوسيلة مشروعة حقاً في نظر كاتب بروتستانتى ورع مثل « ندا باننجي سيتولى » فقد كتب في فصل من كتاب « أفريقيا الثائرة » وقد جعل عنوان هذا الفصل « أفريقيا والشيوعية » وقد وجه اهتمامه فيه لشرح الحركة الوطنية الأفريقية وأنها بعيدة جداً عن الشيوعية ، واستشهد في شرحه بشواهد كثيرة منها إعلان الكولونيل « ناصر » لرأيه القائل بأن : لن يكون هناك أى تسلل شيوعى في الشرق الأوسط ولا في أفريقيا إذا ما طبقت الولايات المتحدة الأمريكية سياسة تتسم بالشجاعة فتستكون هذه السياسة الحل الوحيد الفعال من الناحية المعنوية ، وذلك بأن تساند من يريد أن يقضى على السيطرة والاستغلال الأجنبي بل وسيكون الاستقلال هو الدفاع الحقيقى ضد أى تسلل

أو اعتداء شيوعي . فالرجال الأحرار هم أكثر الناس تمسكاً بالدفاع عن حرياتهم وهم لا ينسون قط من ساعدوهم في كفاحهم من أجل الاستقلال .

وفي هذا العرض نرى أنه يحتوى على بذور التحذير الذى يوجهه « ستوبل » إلى الغرب ، في نفس هذا الكتاب بعد عدة صفحات من النص السالف الذكر الذى أورده فراه يقول : « إننا نعتقد أن بعض البلهاء من الأفريقيين المتطورين هم الذين على استعداد لاستبدال الاستعمار الأوروبى الحالى بالشيوعية الروسية . . . ولكن كما بينا ذلك من قبل فقد يتجه الأفريقيون نحو الشيوعية كمن يتجه إلى نجدة بائسة وأنهم يستخدمون الشيوعية كوسيلة (ولرب أنها وسيلة خطيرة) للحصول على استقلالهم التام » .

ويبدو أن مثل هذا الموقف إنما هو مقدمة لسياسة التوازن بين الكتلتين وهي السياسة التى مارسها وسارت عليها أغلب الدول النامية . ولم تغل النفوس من الألم حين نرى ظهور آراء مكيفيلية جديدة (الغاية تبرر الوسيلة) ولو أن الشرح يبدو بسيطاً ولكن يجب ألا ننسى أن كل مساعدة خارجية حتى ولو أقرضنا أنها غير مفرضة ، وهذا فرض كريم غير مطابق للواقع وأن هذه المساعدة تحتوى على علاقة تبعية منذ اللحظة الأولى في الارتباط بها فإنه من العسير أن نتصور أن دولة قد اعتدى على حريتها لا تكون حساسة لمثل هذا المظهر ولأى نقيض اقتصادى مبنى على الهبات .

إن اتهام الطابع الماركسى بالتواطؤ مع الشيوعية الذى يوجه إلى الحركة الأفريقية لا يمكن تفسيره من الناحية التاريخية التى جعلت من روسيا دولة بلا مستعمرات . ولكن المظهر الماركسى يظهر وكأنه المذهب التحررى بالنسبة للشعوب المستبدة (المستعمرة) فقد ظهر هذا جلياً في كثير من الكتب الماركسية والتي من بينها كتاب لينين بعنوان : « الإمبريالية هي أعلى مراحل الرأسمالية » وكذا كتاب « المشكلة الوطنية والاستعمار » لستالين . فقلنا توجد دولة أفريقية استقلت حديثاً لا تزعم اليوم أنها إنما تنتمى بشكل أو بآخر للاشتراكية حتى أصبحت هذه قاعدة عامة تقريباً حتى بالنسبة إلى الذين يظنون أقرب ما يمكن إلى المعسكر الغربى (وهم الأغلبية العديدة) منهم إلى المعسكر الشيوعى) . فكان ذلك صدقاً وظاهرة واضحة للفكرة الماركسية في أفريقيا السوداء . ويبدو هذا الصدى أكثر وضوحاً على وجه الخصوص في الدول الناطقة باللغة الفرنسية وذلك لأسباب تاريخية واضحة : فإنه يوجد في فرنسا حزب شيوعى ذو أهمية كبرى حتى أنه اشترك مرتين في الحكم بطريق غير مباشر أيام حكومة الجبهة الشعبية عام ١٩٣٦ وعلى الأخص خلال الحكم الائتلافى الثلاثى بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد أتاح هذان الحادئان (الاشتراك في الحكم) للحزب الشيوعي الفرنسي بأن يمارس تأثيراً حقيقياً في أفريقيا خاصة بواسطة حزب التجمع الديمقراطي الأفريقي منذ تأسس هذا الحزب بعد الحرب حتى انضمامه إلى حزب وحدة المقاومة الديمقراطية والاشتراكية (حزب اليسار الفرنسي غير الشيوعي) وربما كان تأثير المنظمة المركزية العالمية التي تدين بالولاء للشيوعية (الاتحاد العام للعمل) حاسماً وأكثر فاعلية في خلق أنصار وبجاهدين من الأفريقيين المتشبعين بالأيديولوجية الماركسية . وفي أفريقيا الناطقة باللغة الإنجليزية (الناطقة للإنجليزية) فقد ظل الحزب الشيوعي مجموعة صغيرة دائماً وحيث إن حزب العمال هو الموجه والمتبنى لفكرة إزالة الاستعمار في الهند نجد العداء سافراً ضد الشيوعية ولكن الطابع الماركسي يبدو فيها وإن بدا أقل وضوحاً .

ومن المسلم به أننا نجد النظريات الشيوعية مشروحة في إخلاص ومجلة تحليل دقيقاً لدى «كوامي نيكروما» فقد كتب فصلاً بعنوان الاقتصاد الاستعماري في كتابه «نحو حرية المستعمرات» فقد كتب يقول : لقد قام كل من ماركس ولينين بتحليل الاقتصاد الاستعماري تحليلاً دقيقاً وكاملاً وعميقاً . ولكننا نجد رد الفعل للفكرة الماركسية هذه مختلفاً تماماً عند الكاتب «ازيكويه» رئيس نيجيريا الحالي حيث كان في عام ١٩٣٧ قد كتب قائلاً في كتابه أفريقيا الناهضة «إن السيطرة الذهنية والعقلية تريد إضعاف التفكير عند الأفريقيين كما تريد أن تنزع منهم كل إرادة . إني أعلم جيداً الفخاخ والترينات والمتناقضات في آداب السلوك في الشيوعية . ولكن المجتمع الأفريقي اشتراكي بطبعه» .

فإذا كان المرء يحس تأثيراً واضحاً للفكر الماركسي في أفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية فليس معنى ذلك أن المؤلفين الذين يشهدون بماركس (سواء من الشيوعيين أو من الماركسيين الحقيقيين) فإنهم جميعاً يستخدمون هذه الأفكار الماركسية ومنهم سيكوتوري . . يستخدمونها لحسابهم الخاص (إذا استثنينا فقط ماجيموت ديوب) ومن أبرز هذه الحالات حالة الكاتب «مامادوديا - وسنغور» فبالرغم من أنها تقتبس كثيراً من الماركسية والأول منها خاصة (مامادوديا) فإنها يظنان بعيدين عن الماركسية جداً في نقاط أساسية معينة ومن جهة أخرى فإن سنغور يفضل أن يستعمل لفظ «ماركسياني» على أن يستعمل لفظ (ماركسي) .

### صراع الطبقات :

لقد واجهت مشكلة كبرى منذ البداية هؤلاء المثقفين الأفريقيين الذين يعلنون انتماءهم إلى

الماركسية مع اختلاف مدى انتمائهم إلى هذه المبادئ . وتتلخص هذه المشكلة في أن المفهوم لكلمة الطبقة الاجتماعية والصراع بين هذه الطبقات الذي نجم عن الشيوعية . . ترى هل هذا المفهوم يصلح لأفريقيا وينطبق عليها . فالوضع في أفريقيا مختلف جداً عن الوضع في أوروبا . . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الماركسيين لا يجهلون هذه المشكلة لأنهم يعلمون بأن الدول الشيوعية تؤيد الحركات الوطنية البرجوازية في الدول التابعة لغيرها وفي الدول النامية . وهذا رد سابق على الحائل والمعوق النظري الذي يخلقه عدم وجود بروليتاريا صناعية حقيقية في أفريقيا السوداء . وإذا ماذا يجب أن يكون الدور الذي يقوم به السكان من الفلاحين وهي الطبقة الأكثر فقراً والأقل تطوراً من غيرها ولكنها تشتمل على أغلبية السكان .

وسجل تاريخ تحرير المستعمرات أن هذا التحرر نشأ وبدأ على وجه الخصوص في المدن وبين الطبقات التي اتصلت كثيراً بالحضارة الغربية . فالخاربيون القدماء هم الذين هاجموا قصر الحكومة في أكراسنة ١٩٤٨ وهم الذين أثاروا القلاقل والاضطراب في مدينة «فريتون» سنة ١٩٥٥ كما كان النقييون في أغلب الأحيان هم البادئون في الصراع السياسي - وأن البرجوازية الصغيرة التي تشمل زارعي الكاكاو هي التي لعبت دوراً سياسياً حاسماً في ساحل العاج وفي ساحل الذهب . . وأخيراً فإن الزعماء السياسيين كلهم تقريباً يتمون إلى ما نسميه الطبقة المتطورة . ولا يوجد زعيم واحد من الزعماء السياسيين لا يعرف اللغة الأوروبية التي تستعمل في المستعمرة كما لا يعرف قراءة وكتابة لغته القومية .

ويجد السياسيون مجالهم في المناورات ، خاصة في الكتل الشعبية الفقيرة التي أزيلت عنها القبيلة وكذا لدى العمال المتعطلين وخدم المنازل . وفي غالب الأحيان يظل الفلاح بعيداً عن ذلك . . ذلك الفلاح الذي يزيد دخله السنوي قليلاً عن الأجر الشهري الذي يتقاضاه خادم عند رجل أبيض . وهو ما زال يقامى من الجماعات التي تحمل من وقت لآخر ولكنه مقيد بالزعماء ورؤساء القبائل والعشائر المحليين الذين أصبح بوجه عام أنهم أتباع مخلصون للإدارة الاستعمارية ومعظمهم معارض بل ومعاد للاستقلال وللمغامرات حتى اللحظة الأخيرة . .

وبعد هذا الإيضاح نرى أن الفلاحين يمثلون ٩٠٪ أو يزيد من عدد السكان ولهذا يصعب الشروع والإقدام على أي شيء دونهم .

تلك هي أبعاد المشكلة التي تواجه المثقفين الأفريقيين الذين يميلون نحو الماركسية ولهذا فإجاباتهم على هذه المشكلة تظل متباينة . ولكن من الملاحظ أن كلا من سفور وميكوتوري يقيم التحليل

الماركسي للصراع القائم بين الطبقات ومن الصعب تطبيقه على أفريقيا .  
فإننا نجد في خطاب سيكوتوري العناصر الأساسية للأدلة النظرية التي جعلته في عام ١٩٥٧  
ينادي بمقاطعة لجنة مركزية نقابية تنتمي إلى اليسار المتطرف الفرنسي ويرفض (بالنسبة لأفريقيا)  
قبول أحد المبادئ الأساسية للشيوعية الدولية ، والنقطتان الرئيسيتان اللتان يرتكز عليهما موقف  
سيكوتوري هما أولاً : أنه لا يوجد طبقات متباينة حقاً في المجتمع الأفريقي ومن ثم فلا يفهم معنى  
للصراع بين الطبقات في هذا المجتمع ، ثم إن مصالح نقابات الدولة المستعمرة (الأوروبية) معها  
كانت مشجعة للوطنية الأفريقية فإنها لا يمكن أن تشمل تماماً مع مصالح النقابات الأفريقية .  
وقد صرح الزعم الغيبي قائلاً : بالرغم من المتناقضات القائمة بين مختلف الطبقات الاجتماعية  
المحلية فإن السيطرة الاستعمارية تعزو هذا إلى الصراع القائم بين الطبقات (ولو أن هذا القرض لا محل  
له) ونسمح بتفادي تثبيت القوى في المتناقضات المذهبية ويضيف قائلاً : في الدول المستقلة في  
أوروبا وآسيا وأمريكا نجد أن الطبقة العاملة (طبقة العمال) هي الطبقة التي تنتج ، ومع ذلك نصيبها  
ضئيل في توزيع الأرباح فيتبع ذلك صراع بين هذه الطبقة والطبقة المستقلة حيث إن مصالح  
الطبقتين متعارضة تماماً . أما في البلاد المستعمرة فإن الموقف جد مختلف لأن المتناقضات بين مختلف  
السكان ضئيلة جداً بالنسبة للمفارقات الأساسية التي توحد بين مصلحة مجموعة الشعب المستعمر  
وبين النظام الاستعماري (أو مصلحة المستعمر) نفسه . في البلاد المستعمرة يختلط عادة الصراع بين  
الطبقات مع الصراع ضد نظام الاستعمار الذي يظهر في أعلى درجاته ، ذلك لأنه في الحقيقة نتيجة  
لنمو رأس المال المستغل خارج الدولة المستعمرة عن طريق فرض نظامها الاستعماري .  
ومن قبل حلل رئيس جمهورية غينيا المقبل الخطوط الرئيسية لموقف ثلاث وحدات نقابية  
مركزية هي : الاتحاد العام للعمال - القوة العاملة - الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين . وقد اختتم  
حديثه قائلاً : إن المبدأ السياسي لهذه المنظمات معروف لدرجة تجعلنا لا نشعر بالحاجة إلى الرجوع إليه  
لدراسته وأما نستطيع أن نؤكد أنه سواء أكان الأمر يتعلق بالتنظيم النقابي ذي الميول الثورية  
أو بالتنظيم النقابي ذي الميول الإصلاحية أو بالتنظيم النقابي ذي الميول المسيحية ، فإن أياً منها  
لا يمتشي تماماً مع المستلزمات التاريخية الخاصة التي مجتمعتها كفاح الشعوب المستعمرة من أجل  
التحرر .

وليس معنى ذلك أن سيكوتوري يجهل بدور الطبقات الاجتماعية التي يخفيها المجتمع الأفريقي ،  
بل على العكس فإنه يحذر من خطورة نمو هذه البدور . فقد ذكر هذا في المؤتمر الخامس للحزب

الديموقراطى الغنى المتعقد فى سبتمبر سنة ١٩٥٩ فقال : من قبل الاستقلال كانت توجد متفاوتات داخلية (داخل البلاد) وكانت تلك التفاوتات تضع أولا فئة الفلاحين وهى تكون ٨٠٪ من سكان غينيا ، تضعهم وجهاً لوجه مع طبقة الإقطاعيين الذين أفسدهم الحكم الاستعمارى ، هذه الحاجة قد انتهت بالوضع على ألا يكون تعبيراً صادقا لأفكار مجموعات الشعب الوطنية . كما كانت توجد أيضا متفاوتات داخلية أخرى ظاهرة أقل شأنًا ، وكان يجب القضاء عليها فى سرعة حتى تقوى الوحدة الشعبية . فكان هناك التناقض الخاص الناشئ بين ما نسميه الطبقة المثقفة من جهة وبين الفلاحين من جهة أخرى لأن التعليم الذى كان يقدم لنا كان يهدف لأن يجعلنا نشبه بالمستعمرين ، كما يهدف لأن تفقد شخصيتنا وأن يجعلنا غريبين - فقد كان يصور لنا حضارتنا وثقافتنا وحتى علومنا الإنسانية على أنها تعبير بدائى متوحش ، وذلك لخلق العقد النفسية فينا حتى تدفعنا لكي نصبح فرنسيين أكثر من الفرنسيين أنفسهم . كما كان يوجد خارج هذه الظواهر ، وكان يوجد فى الميدان الواقعى الخاص بهذه النخبة المثقفة سلسلة من المزايا والضمانات وهى أشياء غريبة تماماً عن حياة الغالبية العظمى من الشعب ، وهى الامتيازات التى تتمتع بها هذه النخبة - فى هذا الميدان كان يتم فى الحال إرضاء مطالب البعض وكأنه التزام جديد وعبه جديد على الآخرين الذين هم فى الواقع ليسوا فحسب الأغلبية من السكان بل يمثلون أيضاً الفئة الأكثر حرماناً<sup>(١)</sup> .

وفى كتاب «طريق أفريقيا نحو الاشتراكية» كتب رئيس جمهورية السنغال يقول : إن من لا يلتفت نظره نظرية الصراع بين الطبقات فى أفريقيا فإنه كمن يرجع من الألفاظ إلى الحقائق الخاصة بالأوضاع النيجمية الأفريقية وينزل من السحب إلى الأرض الصلدة . ويضيف سنفور قائلاً : إن التضامن المزعوم بين البروليتاريا (الطبقة الكادحة) فى أوروبا وبين الشعوب المستعبدة (المستعمرة) إنما هو موضوع رومانتيكى وخيالى تنشره أوروبا ولكنه لا يصمد طويلاً إذا ما حللناه .

وقد اهتم رئيس جمهورية السنغال كثيراً فى أن يبين عند دراسته التحليلية المستفيضة للماركسية . اجتهاد فى أن يبين التنبؤات التى كان يذكرها ماركس من تحليله للصراع بين الطبقات ، وكيف أن هذه التنبؤات لم تتحقق - فقد شرح سنفر كيف أن ماركس قد ارتكب خطأين خاصة فيما يتعلق بالدولة النامية ، أولهما : أن الفلاحين الذين كان ماركس يعتبرهم محصنين من أن تنفذ إليهم «خميرة» الثورة ويقيموا عاكفين على حياة الريف البلهاء تقضوا وجاءوا على عكس هذا الحكم فى

(١) ورد بكتاب «كفاح الحزب الديموقراطى الغنى» الجزء الرابع ص ٢٧ ، ٢٨ .

البلاد النامية . وثانيها أن الاشتراكية لم تنتصر في الدول الصناعية في غرب أوروبا كما قدر ماركس ولكنها نجحت وازدهرت في البلاد النامية في أفريقيا وآسيا .

ومن ناحية أخرى فإن سنفور يشرح أخطاء ماركس فيقول : في أيام ماركس كان الاستعمار في بدايته وإذا لم يكن ماركس بقادر على أن يتنبأ بمحو الاستعمار على نطاق عالمي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد كانت ثقة ماركس العمياء في ضمير وكرم الطبقة الكادحة ، كانت هذه الثقة تمنحه من التنبؤ بالتناقض الذي لابد سينشأ بين مستعمرى الدول المسيطرة وبين بروليتاريا الطبقة الكادحة - الدول الواقعة تحت السيطرة . وقد أصبح الأمر الآن عادياً وبسيطاً ، ذلك أن مستوى المعيشة عند الفئات الشعبية الأوروبية لم يرتفع إلا على حساب مستوى معيشة الفئات الشعبية في آسيا وأفريقيا . وإذا فقد استغادت الطبقة الكادحة في أوروبا من النظام الاستعماري ، ومن ثم فإن تلك الطبقات الكادحة لم تعارض مطلقاً الاستعمار ، أي أنها لم تعارضه بطريقة فعالة <sup>(١)</sup> .

#### الفلاحون الثوريون :

لقد أظهر كل من سنفور وسيكوتوري طبقة الفلاحين وأهميتها الكبرى في المجتمع الأفريقي كما اهتم «عبد ولى لى» بدور هذه الطبقة في الثورة الأفريقية حين كتب كتابه «الكتل الأفريقية والظروف الإنسانية الحالية» الذى صدر عام ١٩٥٦ - فقد نوه المؤلف بالخطرين اللذين يهددان الثورة الأفريقية إذا ما قادها سكان المدن ، فقال إن مثل هذه الثورة تعوزها قوة هائلة تمثل في طبقة الفلاحين ، والخطر الثانى هو أن يستأثر سكان المدن بمكاسب هذه الثورة وحدهم .

ولتجنب حدوث ذلك يحلل «لى» بالتفصيل فصلاً كاملاً فيقول «على هامش المفهوم الماركسى للبروليتاريا يجب رد اعتبار طبقة الفلاحين الثوريين مثل ما حصل عند اشتراك الفلاحين في الثورة الروسية - فهو يعتقد أوجه المشابهة بين ماكانت عليه روسيا قبل ثورة أكتوبر وموقف أفريقيا الحالى ، والاقتصاد كان اقتصاداً ريفياً والصلصة لم تولد بعد كما ينبغي أن تكون ورأس مالها غالباً ما يكون أجنبياً وطبقة الفلاحين جهلاء .

(١) من الأصح أن نقارن آراء سيكوتوري وسنفور الخاصة بمصلحة البروليتاريا بآراء «دانيل جرين» الذى شن هجوماً عنيفاً على موقف اليسار الفرنسى بخصوص الاستعمار قبل الحرب وذلك في كتابه الجبهة الشعبية ثورة فاشلة .

فهو بهم بعد ذلك بنظرية «ميخائوف» الذى يدعى الماركسية والذى يذهب إلى تأييد فكرة أن الحركة التقدمية للبروليتاريا قد عاقها ومازال يعوقها الحمود السياسى من جانب طبقة الفلاحين القديمة . ولكنه يسلم بالنقيض فيقول : إننا نسلم مع ليون ترونسكى الذى نعلم مدى تبعه للشئون العالية . الذى يقول إن الأسس العميقة لهذه الثورة إنما كانت بسبب مشكلة توزيع الأراضي الزراعية .

ولهذا فإن الاقتصاد السغالى يرد اعتبار الفلاحين الروس ، ويذكر على وجه التخصيص أهمية الإضطرابات التى قام بها الفلاحون عام ١٩٠٥ ، وسنة ١٩٠٦ ومساهمتهم الكبرى فى إنسداد نظام الحكم القيصرى بالثورة التى قاموا بها فى الجيش . وبالرغم من اعتراف هذا الكاتب بعقوبة «لينين» التى تكن فى أنه عرف كيف يراعى جيداً طبقة الفلاحين الروس إلا أنه يؤيد فكرة أن صاحب نظرية الثورة السوفيتية قد ارتكب خطأ كبيراً ، وذلك عندما ضحى بثورة الفلاحين الحقيقية الحاسمة فى سبيل ثورة بروليتارية محتملة الوقوع يرمز لها بالبنجل والمطرقة .

ويرى «عبد لايلى» أن أحد العوائق الخطرة لمفهوم الثورة هو أن يهل ما للفلاحين من أهمية بأن يجعل إرساء أسس البيروقراطية التى تنشأ لأن مجال المناورة الثورية الذى كان يرتكز على الفلاحين حيثئذ ظل منفصلاً عن الطبقة المثقفة الحاكمة التى يمثلها ليس فقط المتعلمون ، بل وأيضاً المجاهدون من أنصار العمال . ويستكمل المؤلف فى ملاحظاته بخصوص الثورة الروسية فيقول : حتى أنصار الثورة من العمال كانوا بيروقراطيين قبل ظهور البيروقراطية إذ كانوا مقتنعين بأهميتهم التاريخية وبالمهمة المنقاة على عاتقهم كمنصة مفكرة وعاملة بالقياس إلى الفلاحين الروس الذين كان نصف عددهم (٥٠٪) من الأميين ، ويتابع الكاتب حديثه بقوله : إن نفس الحدث (حدث البيروقراطية) قد وقع أيضاً فى أفريقيا السوداء وأخيراً أخذ يسير ضد تيار بحر العمال الزراعيين . ومع كثرة انشغاله واهتمامه فإن هذا الكاتب يرسم لنا مخططاً لمختلف الفئات الاجتماعية فى محيط السكان فى أفريقيا السوداء وهو يتعد لكل فئة منها عملها إلى جانب الفلاحين الثوريين . فيذكر أولاً فئة صغار البيروقراطيين التى ينتظر أن تلعب دوراً كبيراً جداً بسبب تكوينها الثقافى ويذكر ثانياً البروليتاريا الناشئة وتشمل العمال الذين يقومون بأعمال ثابتة . ويرى «لى» أن حالة هاتين الفئتين تدفعهما إلى المطالبة ببعض الإصلاحات . . . ولكن هناك عدة عوامل معينة منها التفرقة فى المعاملة التى تقع عليهم وسهولة معرفتهم لحقائق الأمور . الأمر الذى يعد العدة لعمل حاسم تقوم به الكتل الشعبية الأكثر شقاء . . .

ثم يذكر الكاتب الفئة الثالثة والأخيرة وتشمل الفئة «الأكثر بدائية» وهذا اللفظ مأخوذ من اختصاص اجتماعى فرنسى ، ويقصد بهم العمال الذين يعملون باليومية . وهم يكونون طبقات شعبية متأرجحة ويمثلون دائمون لطلائع الفلاحين في المدينة . وهم يعيشون في غير استقرار وعدم طمأنينة . ويحتزنون في صدورهم مقدرة على القيام باضطراب وتحول اجتماعى . . . الأمر الذى يجب علينا أن نحسب له حساباً ونقدره حق قدره .

وفي النهاية يقتبس «عبدو اللاي» من التجربة الصينية ليختتم حديثه فيقول : تعتبر المقارنة بين العصرين الكبيرين للثورة الصينية مفيدة ونافعة للغاية . فالفترة التى سارت فيها هذه الثورة على هامش البروليتاريا - كانت فترة فشل - والفترة التى وجه فيها «ماوتسى تونج» ثورة الفلاحين وهو على رأس الحرب الشيوعية الصينى هى فترة الانتصارات .

ونجد في كتاب «المعنين في الأرض» للكاتب «فرانز قانون» أفكاراً قريبة من أفكار عبد اللاي ، غير أنها خلت من الإشارة إلى الماركسية . فن دراسة هذا الكاتب الأخير للبرجوازية لكان البلاد الأصليين في الدول المستعمرة يرى أنه يجب أن يقضى عليها ، ويختتم «قانون» فكرته بقوله : إننا سنجد في طبقة الفلاحين العناصر الأكثر كفاءة على تحقيق الثورة . والكاتب «ماغيموت دبوب» وهو شيوعى قح نراه يؤيد نظريات مضادة لنظريات عبد اللاي في بخصوص الدور الثوري لطبقة الفلاحين ، وذلك في كتابه «المشاكل السياسية في أفريقيا السوداء» فابتداء من مقدمة الكتاب نجد أن مؤسس حزب الاستقلال الأفريقى يهاجم في عنف «الفوضويين أتباع تروتسكى المعادين للينين وفرمان ثورة الفلاحين الحديثة» .

ويرسم «ماغيموت دبوب» لوحة على طريقة «عبد اللاي» يدون عليها مختلف الطوائف الاجتماعية ابتداء من البرجوازية الكبيرة حتى فئة تصف البروليتاريا المكونة من صغار التجار ، وحينما يتطرق به الحديث عن الفلاحين يجده يقول : يجب عليهم (الفلاحين) أن يقبلوا إدارة بروليتاريا المدن ، إذ أن طبقة الفلاحين تظل غير منظمة وفقيرة جداً وجاهلة للغاية ، وذلك لأنها خاضعة لكل تلك السلسلة من الاستغلالات التى يشكلها رؤساء العشائر والإقطاع والاستعمار (ومن ناحية أخرى فإن تشييت العمال الزراعيين في مساحات واسعة من الأراضي يحطم قوة مقاومتهم فيما الركيز والتجمع يزيد من مقاومة عمال المدن . وإذا فالكاتب على يقين من أن هذه الأسباب مجتمعة تجعل من الفلاحين طبقة لا تستفيد قط من تصفية الاستعمار ، بل يجب عليها أن تقبل معونة وإدارة

البروليتاريا ، فهي طبقة أكثر نضوجاً وأكثر تعليماً وأكثر تنظيماً<sup>(١)</sup> .

أما الوسيلة الواجب اتباعها فيذكر «ماغيموث دبوب» أنها نفس الوسيلة التي اتبعها ماوتسى تونج . وإذا يجب إنشاء حزب البروليتاريا الأفريقى وهو حزب الاستقلال الأفريقى ويكون على أساس قومى . ويورد الكاتب كلمات لماوتسى تونج فيقول : بدون حزب شيوعى بلشئى تكون أسسه وطنية فإنه لا يمكن القيام بهذه المهمة (مهمة الثورة المزدوجة التى تجمع بين الديمقراطية الاشتراكية) ولذلك يجب على كل شيوعى أن يبنى مثل هذا الحزب الشيوعى<sup>(٢)</sup> .

وقد بين «دبوب» من قبل وفى نفس الكتاب أنه لا يجب أن نعتمد أنها مهمة سهلة وحتى إذا كان الأمر يتم على مستوى أفريقيا الفرنسية فقط (صدر هذا الكتاب سنة ١٩٥٨) فإن تنظيم ما يقرب من نصف مليون عامل ليس بالأمر اليسير .

ويجب إسناد إدارة هذه العمليات إلى هؤلاء العمال وليس إلى الفلاحين ، ثم يعود الكاتب فيستشهد بقول ماوتسى تونج حين قال : فى جبهة مشتركة للكفاح ضد الاستعمار إذا لم ترجع الإدارة إلى الطبقة الأكثر وعياً والأكثر تفهماً لمعنى الثورة فلن تكون هناك فرصة لتحقيق نجاح هذه الثورة .

من دراسة لدقائق البروليتاريا وخصائصها نجد أن ماوتسى تونج يقدم ثلاث خصائص لها :

١ - أن هذه البروليتارية مضطهدة من الاستعمار الأجنبى والبرجوازية ، والإقطاعيين .

٢ - يدير هذه البروليتارية حزب ثورى

٣ - لهذه البروليتاريا تقارب طبيعى مع الفلاحين .

ونحنم «ماغيموث دبوب» حديثه قائلاً : لقد جعلت هذه الخصائص الثلاث من البروليتارية الصينية بروليتاريا متصرة دائماً وقد أعجب بها العالم أجمع .

ويؤيد هذا الكاتب عن اقتناع الاتحاد الوثيق بين روسيا والحزب الشيوعى الفرنسى فيقول : من السهل أن نفهم أن أول حلفاء لنا على الصعيد الخارجى هم الطبقات الكادحة فى الأمة المستعمرة . فى موقفنا نجد أن البروليتاريا الفرنسية وحزبها الشيوعى الفرنسى هم حلفاؤنا . وهو تحالف طبيعى فى إطار نفس الدولة ، فهو تحالف الذين يحسون الاضطهاد ضد من يضطهدونهم .

(١) كتاب ماعنوت دبوب بعنوان : مساهمة فى دراسة المشاكل السياسية فى أفريقيا السوداء ص ١١٩ ،

١٢٠ .

(٢) ورد بنفس الكتاب ص ١٥٤ .

ولكن ماغيث دبوب يذكر أيضاً بالتحذير الذى وجهه لينين : إن الاضطهاد الذى دام قروناً عديدة فى اضطهاد القوميات الضعيفة فى الأمم المستعبدة بواسطة الدول الاستعمارية قد ترك فى نفوس الطائفة العاملة فى هذه البلاد المضطهدة شعوراً بالحق وشعوراً بالحدز فى نفس الوقت نحو الأمم التى تضطهد بها بوجه عام . ومن ضمنها بروتيتارية هذه الأمم .

وينادى هذا الكاتب ويصر فى عنف على أنه لا حياد مطلقاً ، بل يجب على البروليتاريا الأفريقية أن تحالف مع روسيا وذلك لأن ستالين قال : إن ثورة أكتوبر قد أرست أسس الاتصال والتقارب بين الغرب الاشتراكى والشرق المستعبد وذلك بفتح جبهة جديدة للثورات تمتد من الطبقات الكادحة فى الغرب مارة بطريق الثورة الروسية وتصل إلى الشعوب المضطهدة فى الشرق ، ويرى دبوب أن شعار ستالين هذا ينطبق على أفريقيا ويستشهد بماوتسى تونج أيضاً حين قال : إذا رفضنا المعونة السوفيتية انهزمت الثورة .

ولهذا الكلام قيمته التاريخية كمقترحات على الأقل .

انتشار البروليتاريا وتوسعها :

لم يقابل «عبد اللأى» فى نقد الماركسيين الحقيقيين قط ، لا لأنه خصص لطبقة الفلاحين الأفريقيين دوراً ثورياً هاماً وأساسياً فحسب ، بل لأنه هاجم أيضاً بعض مظاهر الشيوعية السوفيتية داخل وخارج حدودها : ففى الداخل عاملت البروليتاريا (العالمية) الفلاح معاملة قاسية . وفى الخارج فإن قوة روسيا الصناعية تصنع هذه البلاد بمخصائص مشابهة تماماً لمخصائص استثمار الرأسمالية .

ويرى «لى» أن الدول الرأسمالية والطبقة البرجوازية فى واقع الأمر لا تستغلان الدول النامية وحدها ، فروسيا تشترك فى هذا العيب الملام عليها - فالاتحاد السوفيتى دولة مصنعة لدرجة كبيرة وتحاول إيجاد أسواق لصناعاتها تماماً مثل الدول الرأسمالية فيكون إذاً لتوسعها البروليتاريا صلة قوية بالاستثمار الرأسمالى البرجوازى . ويستطرد «لى» قائلاً : إن قوة روسيا الصناعية إنما هى نتيجة لتخطيط دفعت طبقة الفلاحين ثمنه فى غالب الأحيان ، وهكذا كان أحد معاوى لينين بأسف للناظر الكفيف الذى تشكل قوة الفلاحين الجهلاء التى كانت تعارض كل تنظيم اقتصادى مخطط يخالف النفوس ويتفق مع فوائد الطبقة الكادحة (البروليتاريا) التى تقتضها الحاجة التاريخية . فطبقة الفلاحين الكبرى يجب أن تحتل طوال هذه الحقبة التى حكمت فيها حكومة لينين بعد الحرب الأهلية . هكذا يعتقد الكاتب خاصة وأن طبقة الفلاحين استسلمت للاستغلال واحتكار الدولة

للأرض في ظروف تجعلنا لا نعدو الحقيقة في أن هناك شياً بين حالة الفلاحين في روسيا وحالتهم في الولايات المتحدة وكذا حالة الفلاحين في الدول النامية التي تسيطر عليهم الاحتكارات الاستعمارية . وبعد دراسة نتائج هذا التخطيط الداخلي فإن الكاتب يصر على أن المشاريع الروسية أعطت التصنيع الأولوية - لذلك عنت روسيا في علاقاتها بالدول النامية بصادراتها من هذا التصنيع وكل منهما البحث عن أسواق - كما عنت أيضاً كمستورد للمواد الخام والمواد الغذائية من هذه الأسواق . كما يعلن «لى» أن هذا التصرف من جانب روسيا هو عبارة عن طبعة جديدة لما يفعله الحلف الاستعماري وما يقوم به في بلاد الشرق الأقصى على وجه الخصوص . تلك هي خاتمة نظرية التوسيع البروليتارية التي تنص على أن نظرية رد الاعتبار لطبقة الفلاحين الثورية .

#### سيفور يواجه الماركسية :

فند بداية رسالته بعنوان «طريق أفريقيا نحو الماركسية» نجد أن رئيس جمهورية السنغال يمدد موقفه من الفيلسوف الشيوعي «ماركس» إذ يتساءل سيفور قائلاً : هل نستطيع أن ندمج القيم الثقافية الرغبية وعلى الأخص القيم الدينية في الاشتراكية ؟ إن إجابتنا يجب أن تكون بالإيجاب دون مواربة . وسرى فيما بعد لماذا نقول «نعم» لسا ماركسيين بالمعنى الذي يعطونه للماركسية اليوم باعتبار أنها تمثل ميثاقاً ملحدة وأنها نظرة شاملة وجامعة للعالم فقد قال ماركس نفسه ذات يوم هذا المعنى : من جانبي أنا فنست ماركسياً ولكننا اشتراكيون . معنى ذلك أننا لن نستبعد ماركس وأنجلو من مصادرنا بل سنبدأ من مؤلفاتها منها تكن أبعادها وحدودها ومنها تكن أوجه النقص وحتى الخطأ عندهما فقد كان لها دون غيرهم الفضل في قلب الفكر السياسي والاقتصادي في القرن التاسع عشر وصيغه بصفة الثورة .

ويكشف سيفور عن هذه الأبعاد وهذه المقالب وهذه الأخطاء بطريقة منتظمة وبهم أكثر بما يتعلق منها بالاستعمار والدول النامية . ولكن سيفور لا يريد أن يستنّي تعاليم ماركس الاقتصادية ولكنه يريد الانتفاع بتعاليم ماركس الاشتراكي وماركس الفيلسوف . فإذا كان يمد في الطريقة الاقتصادية عند ماركس ما يدعو إلى الحيلة والحدز إلا أن شرحه لماركس «الرجل» برغم أنه شرح مادي إلا أنه يكشف عن إنسانية ماركس ، فهو يقول عنه : إن طموح ماركس وآراءه كانت تظهر دائماً خلال مؤلفاته وتعبّر عن كرامة الإنسان وما تقتضيه هذه الكرامة من مستلزمات روحية دون أن

يلجأ إلى الميتافيزيقيا أو الأخلاق أو الدين وحتى دون أن يلجأ إلى الفلسفة . إنه فيلسوف بأبى ولا أقول أن يجهل فهو فيلسوف بالرغم من كل شيء . ومن جهة أخرى فإنه يمكن أن تعيد قراءة مؤلفاته بانتباه وتحصيل لكى تعلم أن مادة كتابه - خاصة في الصفحات العاطفية الخاصة من مؤلفاته وما أكثر هذه الصفحات العاطفية الغنائية تسم بالسخط لأنها تنطوى على فكرة أخلاقية والا باسم من ولماذا أكد ماركس في جراءة حقوق الإنسان وكرامته في امتلاك ما ينتجه من عمل . وباسم من ولماذا يحكم على العمل الليلي بالإدانة وكذا تشغيل الأطفال الصغار ( الحدث ) وتجارة الرقيق ، كل ذلك كان باسم فكرة معينة كامنة في النفس البشرية وباسم نوع من التفكير السامى الذى يفوق الإنسان ، فالعلم يقرر حقائق والعلاقات بينها أنها تشرح هذه الحقائق ولكنها لا تفرضها فرضاً ولا يستطيع العلم أن يتقل من حكم على حقيقة إلى حكم على القيمة ( أى يتقل من حكم على الواقع إلى حكم على القيم ) .

ويستطرد سنفور في حديثه فيقول : إن نظرية نزول البروليتارى عن حقه الدافع لها فكرة أخلاقية . والأمر الإيجابي الذى أتى به ماركس إنما هو نظرية للإنسان والتي تذكرنا بنظرة « باسكال » له ثم يضيف رئيس جمهورية السنغال قائلاً : « من ناحية أخرى فبالرغم من هذه المظاهر فإن الإلحاد ليس ضرورياً في الجانب الإيجابي في مؤلفات ماركس » وإذاً يستطيع سنفور أن يوفق بين المظهر الإنساني في آراء ماركس وبين معتقدات سنفور الدينية . ويستشهد كذلك بالكاتب الفرنسى « تيلهار دى شاردان » الذى وجه تفكيره إلى هذا المجال . كما يذكر سنفور تأكيداً لنظريته خطاباً لمؤلف كتاب « الظاهرة الإنسانية عام ١٩٥٢ » الذى يقول فيه : إن فكرة وجود الله في السماوات ( عند المسيحيين ) وفكرة الإله عند ماركس بأنه مائل أمامنا فإنما هو الله الذى يجب أن نعبد ونعجده بالروح وفي الحقيقة .

ويختتم سنفور حديثه في هذه النقطة قائلاً : إن إله المسيحيين كما تعلمون هو أيضاً نفس إله المسلمين ، وهذا مبدأ أساسى مسلم به ، على أن هذا المبدأ يحتوى على شحنة ثورية كبرى ، فهذا المبدأ يستطيع أن يصنع الفلسفة والعلوم بصيغة ثورية . فهو بالنسبة إلى الذين يكونون مثل غالبيتنا ممن يعتقدون في الله ، فإن هذا المبدأ يقلل مع مفهومه مبدأ الحرية فيما تدرسه من أفكار دون أن تتخل عن طريقة الجدل . فهذا يسمح لنا بالاحتفاظ بالإيجابيات التى تأتى بها الاشتراكية ويجعل إيماننا شرعياً وكذا النقد البناء للاشتراكية الذى حاوله بعض المسيحيين وبدأه بعض المسلمين ونرد منهم الشيخ محمد عبده وسجال الأفغانى ومحمد إقبال والذين كان هدفهم فتح باب الإسلام للعالم

المعاصر يدون أن يفقد الإسلام حراوته الروحية . وجميع هؤلاء المفكرين سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين هم الذين يرسون لنا الطريق ويبسوه حتى نسير فيه .

وهكذا يريد سنفور أن تكون اشتراكيته قبل كل شيء اشتراكية روحية على أسمى مستوى كأن تكون اشتراكية تستعير من ماركس الأفكار الأخلاقية والاجتماعية التي تسير العقائد الدينية في كل من المسيحية والإسلام .

كما يجب إدماج هذه الاشتراكية الإنسانية في العالم الزنجي الأفريقي . ترى أممك ذلك ؟ لا يشك سنفور في إمكان ذلك مطلقاً لأن هذا المجتمع الأفريقي مجتمع اشتراكي في تكوينه وإنساني في معتقده ، فقد أظهرت ذلك كنه الدراسات التي قام بها أخصائيو علم أصول السلالات البشرية أمثال نياقة الأب : تميز ومارسيل جربول النذين قال عنها سنفور : يجب علينا جميعاً أن نحفظ بمؤلفاتها في مكتبتنا لأننا سنتعلم من هذه المؤلفات أن الفلسفة الزنجية الأفريقية فلسفة وجودية وإنسانية مثل الفلسفة الاشتراكية ، غير أنها تريد عليها بأنها تتضمن القيم الروحية ، وهذا يشكل لدى الأفريقيين « القوة الحيوية » لمعدن هذا العالم وأن هذا العالم تحركه حركة حولية . كما سنعم من هذه المؤلفات أن المجتمع الزنجي كمجتمعنا جماعي أى أنه مجتمع طائفي لأنه مكون من وحدة نفوس أكثر من أنه مكون من أفراد متصلة أجزاؤه ، كما سنتعلم منها أيضاً أننا قد حققنا الاشتراكية قبل الوجود الأوروبي . ونستنتج منها أيضاً أننا لدينا الاتجاه الطبيعي لكى نعيددها وذلك بالعمل على أن نعيد لاشتراكيته أبعادها الروحية .

والى جانب مطابقة الاشتراكيين الأوروبية والأفريقية هذه ، فإن سنفور يذكر مطابقة أخرى يجب أن تتيح نوعاً من الانسجام في طرق التفكير لدى الأوروبيين والأفريقيين معاً . وهذا التشابه في وسيلة المعرفة في القرن العشرين وطريقة تصور العالم عند الأفريقيين . فإن سنفور يقول أيضاً أننا قد تخطينا الآن طريقة المعرفة الماركسية في القرن العشرين وكذا طريقة الموضوعية الغربية والتي كانت من رجل العلم مجرد « مشاهد » أو ملاحظ متميزاً عن الشيء الذى يلاحظه ، واليوم فإن أحدث الاكتشافات العلمية والديناميكية ونظريات الكم في الطبيعة ونظرية النسبية وغيرها كل هذه قد بينت للعلم الحديث حدوده فظهرت نظريات المنقطع ( أى غير المتواصل ) والمبهم ( غير المعين ) وغير المحدد وكان نتيجة لذلك أن ترك الأوروبي طريقته القائمة على المشاهدة والملاحظة والتي كانت تجعله بعيداً عن الشيء . وأصبحت المعرفة العلمية تم أكثر فأكثر بالمضاهاة والجدس البديهي كما بين ذلك « جاتيان بيكون » في كتابه « صورة عامة للأفكار المعاصرة » حيث يقول : « إننا نشاهد عودة عامة

على هيئة انحصار وارتداد جذرى عام لفكرة الموضوعية فنجد الباحث الآن في كل مكان مندجاً اندماجاً كلياً في البحث الذى يقوم به حتى أنه بكشفه النقاب عن أمر نجده يحجب أمراً آخر فلم يعد ضوء المعرفة المسلط على الشيء هو الضوء الصافى الذى نستشف منه الشيء دون أن نلمس هذا الشيء . فقد أصبحت جذوة براءة مضطربة تنشأ عن احتضان النور للشيء والاتصال بين النور والشيء . إنه نوع من المشاركة والاتحاد . وتود الفلسفة الحديثة أن تقوم على التجربة وعلى مطابقة المعرفة التى نعيشها بالمعرفة التى نعرفها ومطابقة ما نعيشه وما نذكر فيه ومطابقة ما نعيشه بالواقع ولهذا نجعل العلوم الإنسانية التفسير والفهم متناقضين . فإن تفهم معنى واقع إنسانى معناه أن نجد هذا الواقع في أنفسنا وأن نلمسه كواقع .»

ولكن سنفور يقول : إن هذه المعرفة المبينة على المقارنة والحس البديهي إنما هي في الواقع المعرفة الزنجية الأفريقية إذ أنها معرفة بديية قائمة على المشاركة . وتتصل بطريقة الاستبطان الفكرى (وهي الطريقة اليونانية) أكثر من اتصالها بالمنطق والعقل اللاتينى .» ويضيف سنفور قائلاً بعد تبرة نفسه من اللوم والنقد الذى وجه إليه ومؤداه : إنه قصر المعرفة الزنجية الأفريقية على أنها قائمة على انفعال محض ، ويضيف قائلاً : يجب علينا أن نتخطى الجدلية المادية بأن نستوحى في الوقت نفسه طريقة المعرفة الأوروبية الحديثة والطريقة الزنجية الخالدة . ومن حسن الحظ أن الطريقتين متطابقتان .

وإذا فما هو الاختيار الذى اختاره الرئيس السنغالى في ميدان أكثر عملياً ؟ هذه هي بعض الاتجاهات التى اختارها : -

فإذا كان سنفور يرى أن النظام اليوغسلافى مثلاً يجب أن يحتذى به بخصوص الحكم الفيدرالى إلا أنه يرفض التأميم لأن ذلك معناه «ذبح الدجاجة التى تبيض بيضات من ذهب» فهو يريد أن يحتب رؤوس الأموال الفردية «لأن التكديس الأولى لرأس المال ضرورى لنمو الدولة الحديثة» كما أنه يعتقد في صلاحية الجمعيات التعاونية على الخط الاسكندينافى .

أما اختيار القطاع الذى يوجه إلى الاستثمارات ويكون لها أولوية التفضيل فإنه يستشهد بماوتسى تونج حيث يقول : «إننا مصممون وبالحاح على الاعتمادات المخصصة للزراعة وللجمعيات التعاونية وتطوير طرق الفلاحة وتربية الحيوان ووسائل الصيد وجعلها طرقاً حديثة ، ولقد فهم ماوتسى تونج ذلك وتخطى تعاليم ماركس في هذا المضمار . وكان خطأ الروس كبيراً حين أهملوا الفلاحين والزراعة . ولهذا لم يقع ماوتسى تونج في هذا الخطأ بل اعتمد على الفلاحين ولذا كانت ثورته قبل

كل شيء ثورة فلاحين . وحتى في الدول النامية فإن إهمال الزراعة من أجل الصناعة يوجد عدم التوازن ويعوق رفع مستوى المعيشة ، هذا إلى جانب الخطر الناشئ من إغصاب الفلاحين الذين يشكلون دائماً الطبقة الكثيرة العدد<sup>(١)</sup> .

وبالاختصار فإن اشتراكية سفور الأفريقية هي اشتراكية إيجابية ، أي أنها اشتراكية الطريق الوسط ، كما أنها اشتراكية انتقاء ما هو أفضل وأحسن .

إن مجرد التفكير في بناء اشتراكية أفريقية صرفة عند بعض الكتاب الأفريقيين يجب أن تستند على أسس المجتمع القبائلي على أن يساير حتماً نظم عدم الانحياز في الميدان السياسي .

وهذا مبدأ رئيس تنجانيقا «جوليوس نيريري» الذي يعرف الاختيار الذي قام به فيقول : إن أساس وهدف الاشتراكية الأفريقية هو توسيع مفهوم العائلة فلا تعتبر الاشتراكية الأفريقية الصحيحة أن طبقة من الناس أصدقاءها وطبقة أخرى منهم أعداءها . فهي تعتبر الجميع أصدقاءً وكأنهم أفراد أسرة واحدة تسع دأرتها باستمرار . فالجماعة إذاً أو العائلة هي أحسن وصف لاشتراكيتنا . واشتراكيتنا تتعارض مع الرأسمالية التي تحاول بناء مجتمع سعيد على أساس استغلال الإنسان ، كما تتعارض مع الاشتراكية المذهبية التي تحاول بناء مجتمعنا على فلسفة الصراع الحتمي بين الإنسان وأخيه الإنسان<sup>(٢)</sup> .

كما أن الموقف الذي اتخذته «سيكوتوري» في الإسلام فهو أيضاً موقف يتسم بالتسامح لأن الزعيم الغني يعتبر أن أي مذهب يجب أن يراعي الحقائق الواقعية التي يحتويها هذا المذهب . إن الفقرة التالية التي جاءت في خطاب رئيس جمهورية غينيا لها دلالتها في توضيح هذا السبيل : إذا قرر الحزب تنظيم مظاهرات كبرى بمناسبة عيد إسلامي فيصبح بعض الزملاء أن هذا يعتبر فضيحة . إنهم لم يفهموا أن العمل الثوري لا يتم ضد إرادة الشعب ولكن يتم بواسطة الشعب ومن أجل الشعب . أفلم يكن الحزب على حق حين كيف نفسه مع الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلاد وجعل عمله محصوراً داخل نطاق ما كان من حقائق وإمكانيات التعبئة والعمل العام ؟ وكان بعض الزملاء لا يفهمون أنهم إذا وصفوا عملنا بأنه معاد للإسلام فإن مناطق واسعة (كمناطق فوتا وغينيا العليا وجزء من الساحل المنخفض) لم تستطع الانضمام إلى الحزب أصلاً . فكان لزاماً علينا .

(١) ورد بكتاب سفور بعنوان «طريق أفريقيا نحو الاشتراكية» .

(٢) ورد بكتاب جوليوس نيريري بعنوان «الجماعة أساس الاشتراكية الأفريقية» .

والأمر كله مسألة وسائل - أن نصل إلى هدف تعبئة الأمة وإعطاء هذه المجموعة الوطنية أفكاراً دافعة لتتفهمها حتى تتحرر من بعض العادات والتقاليد الرجعية<sup>(١)</sup>.

#### الحزب الواحد :

وشيئاً فشيئاً ولكن بطريقة تكاد تكون حتمية فرضت فكرة الحزب الواحد نفسها على أفريقيا السوداء - فنجد أنه بالنسبة لوزير داخلية مالي «ماديراكتا» فإن هذا الاختبار قد نتج من أفريقيا الفرنسية وذلك من تجربة تطبيق القانون الأساسي الذي منحه فرنسا للمستعمرات بأن أعطاها نوعاً من الحكم الذاتي . لقد سمح هذا القانون بإنشاء مجالس حكومية على صعيد الدولة . ولكن «ماديراكتا» لاحظ أن البلاد التي بها حزب واحد سياسي يسيطر على جميع كراسي المجلس المحلي قد سارت فيها الأمور على ما يرام على عكس ما كان يحدث لو أنهم اضطروا إلى تأليف حكومات ائتلافية فقد كانت تحدث أزمات كثيرة .

كما بين كيتا أن تعدد الأحزاب لا يلقى فيها في أفريقيا على أنه أمر حتمي ذلك لأن السكان الأفريقيين لا تضارب لديهم من ناحية المصالح لعدم وجود طبقات اجتماعية متميزة بعضها على بعض . ومن ثم فإن مشكلة معرفة ما إذا كان الديمقراطية تفرض وجود عدة تشكيلات سياسية فإن الديمقراطية على هذا الوضع تعتبر مشكلة زائفة .

ويجب الكاتب على السؤال التالي : هل الديمقراطية تحمى تعدد الأحزاب ؟ يجب بالنسبة قائلنا : إننا نعتقد أن هناك ديمقراطيات ظهرت دون أن يكون هناك أحزاب سياسية ولا نستطيع أن نؤكد أن المجتمع الأفريقي مجتمع بغير طبقات ولكننا نقول إن اختلاف الطبقات في أفريقيا لا يتضمن اختلاف المصالح ولا يتضمن كذلك تعارض في المصالح<sup>(٢)</sup>.

أما سيكوتوري فإنه لا يبعد مبدأ الحزب الواحد لأسباب تتعلق بالظروف التاريخية كما جاء في رأي ماديراكتا . إلا أنه مع ذلك يعتبر ضرورة وحدة الشعب لها الاعتبار القاطع في هذا المضمار - وأن على هذه الوحدة أن تعارض في شدة النظام القبلي والإقليميات ونزعاتها وكذلك الاختلافات بين الطبقات .

(١) ورد بكتاب العمل الذي قام به الحزب الديمقراطي الغني والكفاح من أجل تحرير أفريقيا .

(٢) ورد بمقال نشر في مجلة الوجود الأفريقي ص ٧ في العدد (٣٠) تحت عنوان «الحزب الديمقراطي الغني والكفاح من أجل تحرير أفريقيا» .

أما ممارسة الديمقراطية داخل الحزب الواحد فإنها تأتي من تطبيق مبادئ المركزية الديمقراطية كما يعرفها سيكوتورى ويحددها فيما يأتي :-

(أ) يتم انتخاب المسئولين في الحزب عن طريق الانتخاب المباشر الديمقراطي أى بواسطة جميع أعضاء الحزب الذين يتمتعون بحرية التعبير المطلقة داخل الحزب .

(ب) إن شئون غينيا كدولة هي شئون جميع المواطنين في غينيا . كما أن برنامج الحزب يجب أن يناقش بالطريق الديمقراطي . وما لم يتخذ قرار معين فإن كل فرد حر في أن يقول ما يعتقد ويقول ما يشاء . وحين يحدث أن تتخذ وذلك بعد مناقشات طويلة تتم في مؤتمر أو جمعية عمومية فعلى أعضاء الحزب وكذا الحكام أن يلتزموا بهذه القرارات وتطبيقها تطبيقاً صحيحاً .

(ج) إن مسؤولية إدارة الحزب لا تنقسم بل التي تنقسم هي مسؤولية القرارات ومبدأ اتخاذها . وعلى هذا فلا يقابل النظام أى التواء أو اعوجاج .

كما يقدم الزعيم «توم مبوبا» وهو الزعيم السياسى في كينيا حججاً لا تأتي عن الماركسية لأن هذا الزعيم بعيد كل البعد عن الماركسية . غير أن هذه الحجج تمتاز بطابع البساطة الواضحة :

الحزب الواحد لا غنى عنه قبل الاستقلال لأن الكفاح من أجل التحرير لا يسمح بتشتيت قوى الشعب كما أن هذا الحزب الواحد لا غنى عنه بعد الاستقلال أيضاً لأنه أهم عامل في تضامن الأمة الجديدة .

ويجد أن مواقف سنفور أكثر دقة ، فهو يرفض فكرة الحزب الواحد ويقول إن سبب ذلك يرجع إلى أن : وجود المعارضة ضرورى مديئياً . ولكن الدور الذى تقوم به هذه المعارضة هو متابعة نفس الهدف الذى يرمى إليه حزب الأغلبية . وهو منع تبلور الفئات الاجتماعية في طبقات متعارضة ويكون دورها بوجه خاص ضمير أحزاب الأغلبية فإذا كان سنفور يرى استبعاد الحزب الواحد فهذا ليس معناه أنه يجب التخلي عن فكرة الحزب الموحد كلية أى ضم المعارضة إلى المثالية الوطنية . ولا تدن أفريقيا السوداء كلها عام ١٩٦٣ بنظام الحزب الواحد الموحد .

وفي غداة الاستقلال نجد أن «دكتور ازابكويه» رئيس جمهورية نيجيريا الحالى يعلن أنه مقتنع تماماً بالديمقراطية البرلمانية ، وذلك في مقال نشرته مجلة «الوجود الأفريقى» حيث يقول يجب علينا ألا نتردد في أن نجعل إدارة الحكم عندنا تمر في بوتقة الرأى العام المنظم إذ يجب علينا أن نكون أكثر تسامحاً قبل أن نتحصن وتراجع أعمالنا الرسمية مراجعة دقيقة وعميقة ولا يجب أن نهم بما يؤلنا في ذلك ، فإن عدم السماح بوجود معارضة يعمل على خلق كارثة في الحياة الديمقراطية وتكون وسيلة

فعالة في الدعوة إلى الديكتاتورية ، كما يجب علينا أن نتجنب الأتوقراطية (أى مذهب حكم الفرد) بجميع أشكالها إذ يجب علينا ألا يفهم أننا قضينا على السيطرة الاستعمارية لنحل محلها سيطرة نيجيرية بدلاً من البريطانية الاستعمارية<sup>(١)</sup>.

ويتفق فرانتر فامون «الحرب الواحد أيضاً ولكن يفعل ذلك استناداً إلى تحليل مخالف لتحليل «ازيكون» إذ لا يكشف هذا الكاتب الأتيلي في كتابه «الملعونون في الأرض» عن البرجوازية الوطنية والأحزاب التى تحركها هذه البرجوازية ، على أنه يجب ألا ننسى فهم ما يقوله قانون ولا ننسى فهم ألفاظه يطرد الخطأ الأكبر في رأيه قائلاً : إن الخطأ الأكبر والجريمة الأخلاقية للشائع عند غالبية الأحزاب السياسية في الأقاليم والمجالات النامية حسب التقليد العرفي ، إن هذه الأحزاب تتجه أول ما تتجه إلى العناصر الواعية أى البرليتاريا في المدن والعمال والموظفين ، أى أنها تتجه إلى جزء يسير من السكان قلما يكون أكثر من ١ ٪ من عدد السكان . ثم يقول قانون أيضاً : إن العناصر الواعية تشكل في الواقع الجزء البرجوازي في الشعب المستعمر وليس من المستغرب في هذه الحالات أن الأحزاب الوطنية وهى الأغلبية المطلقة تشر بكثير من الحذر تجاه الكتل الشعبية الريفية . وعند هذا الحد يلتقى كل من قانون ولى وسفورد وسيكوتورى في التحليل ولكنه ينادى عنهم حين يعالج ويواجه مشكلة الحزب الواحد ، فزاه يتابع حديثه قائلاً : إن الهدف البرلماني يزين من أساسه في عدد معين من الدول النامية .

والبرجوازية عاجزة اقتصادياً ولا تستطيع إقامة علاقات اجتماعية متماسكة ومبينة على مبدأ سيطرتها كطبقة ، وعلى ذلك فهى تختار الطريق الذى يبدو لها سهلاً وهو طريق الحزب الواحد . وهذا مظهر حديث سافر للديكتاتورية البرجوازية دون موارد ودون تمهيق أى مظهر وقع للديكتاتورية البرجوازية الحديثة . ويستطرد الكاتب في بيانه مهاجماً «الزعيم الشعبى» الذى سرعان ما ستكشف البرجوازية البعيدة عنه الكتل الشعبية وغالبية مستكشف عن وجوده . فيكون هذا الزعيم وطنياً غملاً في وطنيه قبل الاستقلال فيرجع إليه الدور المزدوج في استقرار النظام (نظام الحكم) وفي تخليد وإطالة بقاء السيطرة البرجوازية . ويمتدح قانون تصريحاته بقوله : إن مثل هذا الزعيم لا يمثل الشعب في احتياجاته ولا يعبر عن هذه الاحتياجات بطريقة إيجابية كما أنه لا يمثل كرامة الشعب الحقيقية ، الكرامة التى تمر بالخير والأرض وجعل السلطة بين أيدي الشعب الأمانة

(١) ورد ذلك في مقال بعنوان (نصيب نيجيريا في السياسة العامة) صدر بمجلة الوجود الأفريق عدد ٢٤

المخلص المقدسة . ومستضع وظيفة هذا الزعم الحقيقة إذ سيصبح زعم جمعية الانهازيين أصحاب المتعة الذين يشكلون البرجوازية الوطنية .

عند إعادة قراءة هذا النص نلاحظ إلى أى مدى أوجت أفكار هذا المؤلف (مؤلف كتاب الملعونين في الأرض) فظهرت جلياً في الحملة التي قامت بها حكومة «بن بيلا» في الجزائر في مارس عام ١٩٦٣ ضد البراجوازية ومستغل الحرب أيام وضع ملكيات الأوروبيين الكبيرة المصادرة تحت أيدي لجان إدارية . وكذا الحملة ضد المضاربين الجزائريين الذين كانوا قد اشترؤا بضمن بحس الفئاد والمطاعم ودور السينما من فرنسي الجزائر الذين بادروا بالرحيل عنها .

ومناسبة غانا فإن الأستاذ ك-ا . يوسيا بين في كتاب «تحدى أفريقيا» ودون بعض مظاهر فريدة نوعاً من مظاهر التوسع في نظام الحزب الواحد في الدول المستقلة حديثاً في أفريقيا فيقول : -

أولاً : إن الإدارة الاستعمارية السابقة والتي كانت لا تواجهها أية معارضة رسمية (أى معترف بها من الحكومة) قد تركت للأفريقيين وأورثتهم تقليد التسلط الذي يتلام مع وسائل الحزب الواحد الحالي .

ثانياً : كما بين الكاتب في وضوح كيف أن المستثمرين الأجانب الذين لا ثقة لهم إلا في الحكومات القوية والمستعمرة ترى أن هؤلاء المستثمرين قد قدموا مساعدات وتأييداً غير متناهي إلى الحكومات والأقطار التي لا تسمح بوجود المعارضة البرلمانية (والأجدر أن نذكر الأسلوب المعتدل الذي كتب به (السيد يوسيا) كتابه الأخير فإنه وإن كان يتهم الحزب الواحد ويتنقد نظام الحكم الديكتاتوري فإنه يفعل ذلك في لفظ مترن للغاية ، فهو لم يهاجم قط الرئيس نيكروما برغم أنه ظل في كفاح طاحن معه كزعيم للمعارضة قبل أن يختار المنفى ويسجن الكثير من رفاقه في هذا الكفاح .

### الكتلة الأوروبية الأفريقية :

ومن قبل أن تحصل القارة الأفريقية على الاستقلال فإن الخوف من استمرار سيطرة أوروبا على هذه القارة كان سائداً وكان يقوى بشكل ملحوظ وقوى في نفوس الوطنيين الأفريقيين وذلك نتيجة للمشاريع الأوروبية الأفريقية التي كانت تقترحها بعض الأوساط الأوروبية . ولهذا نجد أن «البريتفريد جريه» كان يرفض رفضاً باتاً وقاطعاً حتى مجرد معنى كلمة «الكتلة الأوروبية الأفريقية الإقليمية» وذلك في كتابه بعنوان «أفريقيا الثائرة» فقد كان يرى فيها مظهراً ناطقاً وبالغ الوضوح

للاستعمار الجديد . فقد كتب يقول : إنهم منذ عهد قريب يعكسون أمام أعيننا ويعرضون علينا صوراً براقاً لمشروع إقامة اتحاد فيدرالى بين قارتين إحداهما متحدة ومستقرة وهى أوروبا والأخرى أفريقيا ، ولم يست بعد فى مصيرها . إن أوروبا تساعدنا بتوكلها وتجربتها المالية القليلة وترفع من مستوى معيشتنا فى سرعة ، والمهام الملقاة على عاتق أفريقيا ثقيلة لدرجة أنه إذا أردنا انشغال هذه القارة من الموت يجب أن ننشئ ما يسميه «بير موسى» ضريبة كونية . ولذا يبدو وجه الكتلة الأوروبية الأفريقية ساحراً حينما يعرض ويكشف عن كرم بالغ من أجناب أصحاب هذه المشروعات ، ولكن تترامى مرة أخرى وتظهر قصة الملك «دناؤس والسيدة فريتر» أى الملك الإله ومن يقدمون له الهدايا (أى أن الأقوال غير الأفعال والظاهر غير الباطن) وهنا تختلف الدعاية عن الواقع والحقيقة .

إن فكرة الكتلة الأوروبية الأفريقية ليست جديدة فهى تابعة من : -

١ - عدم مقدرة بعض الدول المستعمرة على استغلال جميع الموارد الأولية الموجودة فى المستعمرات التى تشرف عليها .

٢ - الرغبة فى تكوين كتلة ثالثة عالية تكون تحت سيطرة أوروبا لتقف فى وجه الكتلتين الروسية والأمريكية .

والكاتب لا يعنى بتوجيه السؤال الآتى حتى لنفسه : عما إذا كان الأفريقيون يجنون أى فائدة من اشتراكهم فى اتحاد فيدرالى قارى لا يزال غير واضح المعالم . وهل هناك فائدة من اشتراك أفريقيا وهى ما زالت تابعة لغيرها والمقسمة مع أوروبا المتقدمة فنياً على أفريقيا والمتصرفة فى مصيرها لا يوجه هذا السؤال حتى يجب بالنسبة . إن الناس يجب أن تفهم أن المهمة الأولى التى تقع على عاتقنا هى بناء رابطة الدول الأفريقية أولاً وقبل كل شئ ويجب ألا نساق إلى حملة صليبية مشكوك فيها للدفاع عن حضارة وعن نظام من المصالح كنا ضحيته أكثر ما كنا المستفيدين منه .

ولم يكن سيكوتورى أقل إيضاحاً من ذلك . فى يوليو سنة ١٩٦١ تجد أن التقرير الخاص بالذهب وتوجيه المكب السياسى لحزبه - كان سيكوتورى يصرح قائلاً : إن الأمم الأفريقية عليها أن تضع فى اعتبارها أنه لحل مشاكلها الاجتماعية العامة والعاجلة عليها أن تواجه شعوبها بأنه من الواجب عليها وفى أسرع ما يمكن أن تحول اقتصادها الذى بنى على العبودية ، وهذا التعبير والتحول ضرورى جداً . ومن الواضح الجلى أنه إذا كان لزاماً لحل مشاكلنا الاقتصادية والاجتماعية أن تمر بالتصنيع وجعل بلادنا بلاداً صناعية فإن هذا الحل لا يمكن تحقيقه لأن بلادنا محصورة فى إطار

ضئيل جداً من الاقتصاديات . إن الاندماج بلا شرط أو قيد في سوق متعددة القوميات ومكونة من أمم نامية لدرجة كبيرة وأمم متخلفة ، هذا الاندماج يتعارض كلية مع هذا الارتقاء الصناعى بل وربما بلغيه قبل أن يصل إلى مدهاه ، ولا يمكن أن يشكل هذا الإندماج إلا نوعاً من الصلة التي تكون بين الفارس ومطيته (فرسه) (١).

كما يكتب «كوامى نيكروما» في كتابه «على أفريقيا أن تتحد» إذ يقول : إن اصطلاح «الكتلة الأفريقية الأوروبية الإقليمية» قد استخدم بخصوص البحوثات مع السوق الأوروبية المشتركة ويبرهن على ذلك بأن الأمر يتعلق بمفهوم خطير هو مفهوم العلاقة الوثيقة والطويلة التي تقوم بين أوروبا وأفريقيا على أسس استعمارية جديدة . ويحجد الزعيم الغاني فكرة إنشاء سوق أفريقية مشتركة .

ويعالج «مامادوبا» مشكلة العلاقات بين الأمم «البروليتارية» والبلاد المصنعة الصناعية يعالج ذلك ولكن دون كبير حرص في كتابه «الأمم الأفريقية والتضامن العالمى» ويرى هذا الكاتب السغالى أن التنفس لهذا الصراع الذى يجعل العالم الثالث يقف في مواجهة العالم الغنى لا يكون في المساواة بين العالمين ولا يكن أيضاً في المنافسة الظاهرة أو المستترة والتي تتم بالحقد والضغينة ، بل يكون هذا التنفس وهذا المخرج في التعاون الواضح الصريح الخالص والذى يضمن به للعاملين ثمراً مشتركاً ومنسقاً .

#### الوحدة الأفريقية :

« قبل أن نسعى سعياً حثيثاً نحو التعاون مع أوروبا يجب أن تكون الوحدة الأفريقية بهذه العبارة كتب «البيريفود جريه» لقد كانت الوحدة الأفريقية هي أول ما يشغل بال رجال الدولة الأفريقيين حتى من قبل أن تحصل بلادهم على الاستقلال . وقد أدت مجهوداتهم إلى نتائج مختلفة متباينة . فاتحاد غانا وغينيا الذى انضم إلى مالى بعد ذلك لم يعد كونه اتحاداً فيدرالياً مؤقتاً تقوم الصلات والروابط بين هذه الدول على أسس واهية (رخوة) في حين أن الصومال الإنجليزى والصومال الإيطالى قد حققا اتحادهما . كما أن الجزء الجنوبي من الكاميرون (الخاضع للسيطرة الإنجليزية) قد أقام اتحاداً فيدرالياً مع الكاميرون الفرنسى (سابقاً) . لقد كانت حياة اتحاد مالى قصيرة في حين أن الاتفاق الجماعى الذى تحقق في مجلس دول الوفاق (ائتلاف أربع دول من (١) ورد بكتاب سيكوتورى بعنوان «ثورة غينيا والتقدم الاجتماعى» ص ١٨٧ .

ممتلكات فرنسا السابقة : ساحل العاج - داهومي - فولتا العنبا - النيجر) بينما هذا الوفاق الجاعى بين هذه الدول لأفريقية الاستوائية لم يتجاوز الاستشارة المشتركة ولا يزال اتحاد أفريقيا الشرقية (كينيا - أوغندا - تنجانيقا) مجرد مشروع . وإذا يبدو الحساب الختامى للوحدة الأفريقية عجباً للآمال بعض الشيء .

ومع كل ذلك فإن هذه الفكرة ما تزال قائمة فى نفوس رجال الدولة الأفريقيين . فهجوم سيكوتورى على مشروع جعل أفريقيا بلقانا ثانياً وعلى القانون الأساسى وعلى دستور عام ١٩٥٨ فقد وجد هذا الهجوم مقابلاً له بعد الاستقلال . هذا المقابل هو تأكيد ضرورة الوحدة الأفريقية ويؤكد رجل السياسة العبى هذه الوحدة فى كلماته الآتية :

«إن ما يوحد بيننا وهذا من حسن طالعنا أهم بكثير مما يفرق بيننا . ذلك لأن تقسيم أفريقيا الجالى تصفى ووهى . فأهدافنا وظروفنا ووسائلنا متائلة فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . ويجب أن نظهر العقدة ونكشف عنها ، هذه العقدة التى تنادى بوجود متناقضات ، وذلك عن طريق عمل تحليل موضوعى لكل قطاع من القطاعات ، فأى جزء أو منطقة فى أفريقيا يستطيع أن ينتج أحسن وأكثر من كذا من المنتجات ، ولكن ماذا سيكون أثر ذلك إذا كانت السوق التى سنباع فيها هذه المنتجات هى لندن أو الهافر أو نيويورك . وأن هذه السوق سوف تخضع لعرض لا تشارك فيه هذه المنتجات بعينها ؟ وإذا فالوحدة السياسية هى حقاً الرد الوحيد على الاستمرار الاقتصادى الذى يسيطر على عمليات التبادل الخارجى والذى كان على أفريقيا أن تقاسى منه فى عهد التبعية والاستعمار»<sup>(١)</sup> .

ويجد بياناً مماثلاً فى حديث الرئيس «نكروما» فى مجموعة خطبه التى صدرت فى كتاب بعنوان «إننى أتحدث عن الحرية» فراه يقول : تعتبر أفريقيا بالنسبة إلى ثرواتها مصدراً لطمع العالم أجمع بينما يستمر الفقر الكريه يفرض نفسه علينا . وهناك خطورة حقيقية فى أن تمنح الدول الأوروبية المستعمرة نوعاً من الاستقلال الشكلى والاسمى إلى مجموعات صغيرة من الأفراد ، لأن ذلك يسمح لهذه الدول بأن تحتفظ بالطابع الاستعمارى القديم فى التنظيم الاقتصادى وذلك بعد الاستقلال . ونرى هنا أن ستفور أكثر حذراً إذ يقول فى اختصار فى مقدمة كتابه بعنوان «الأمة وطريق أفريقيا الاشتراكية» : إن الولايات المتحدة الأفريقية شئ جميل ولكنها لن تكون غداً . وذلك التعبير إنما يعبر عن صدمة عاشها المؤلف منذ قليل ، فقد كتب هذه المقدمة غداة انهيار اتحاد مالى (١) ورد بكتاب بعنوان (عمل الحزب الديمقراطى العبى والكفاح من اجل تحرير أفريقيا ص ٧٩ ، ٨٠ .

الفيدرالى مباشرة . يقول سنفور : لقد أسأنا تقدير القوة الحالية التى تمنح بها الزعة الإقليمية والقومية الضيقة فى أفريقيا . ولقد أهملنا تحليل وفهم الاختلافات والفروق الاجتماعية التى كانت موجودة فى مناطق أفريقيا الغربية الفرنسية السابقة التى كانت قد مدتها بالقوة الإدارية الاستعمارية . إن ذلك يفوق الطموح الفردى وكذا سباق الدول نحو الزعامة . فهل معنى ذلك القول أن الخبر لا يمكن أن يخرج من الشر . وأنه يجب التخلي عن أى فكرة للمجتمع وللوحدة الأفريقية ؟ إننى لا أعتقد ذلك فلتأمل فقط هذا الدرس لكى نكون أكثر واقعية وأكثر تحفظاً .

كما يكتب « جابريل داريوميه » بعد انهيار اتحاد مالى الفيدرالى علماً بأن هذا الكاتب هو السكرتير العام السابق لحزب التجمع الأفريقى الديمقراطى وهو الحزب الذى كان من أكبر المشاريع لفكرة الوحدة الأفريقية . كما أن هذا الكاتب هو سفير السنغال الحالى فى باريس . كتب يقول : إن اصطلاح المستقبل هو الاتحاد الفيدرالى بين الدول وليس اصطلاح الدولة الفيدرالية ولكن إذا كان مؤلف كتاب « أفريقيا نحو الوحدة » يبين ضرورة مراعاة « الضمير الإقليمى » الذى يقف أمام التيار الوجودى فإنه يصراً أيضاً على الحقيقة التى يشكلها النمو الاقتصادى المتباين فى هذه المناطق . الأمر الذى يرى المؤلف أنه يدعو إلى التعاون بين المناطق الغنية والمناطق الفقيرة مثل ساحل انجاج وجابون وهى المناطق الغنية فى أفريقيا الغربية الفرنسية السابقة وفى أفريقيا الاستوائية الفرنسية السابقة أيضاً وهى التى عارضت فى جلاء التملك بالنظام الفيدرالى أيام تحرير المستعمرات الفرنسية السابقة . ومنذ ذلك الحين قدم إلينا انفصال « كاتنجا » أروع مثل للأناية المالية التى أشار إليها الكاتب فى إصرار .

أما ازيبيكون فإنه يرسم فى مقاله « مستقبل الوحدة الأفريقية » الصادرة فى مجلة الوجود الأفريقى » نراه يرسم لوحة تلفت النظر للعقبات التى تعترض طريق الوحدة الأفريقية وبالأخص الانطباعات المختلفة التى طبع بها أفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية وأفريقيا الناطقة باللغة الإنجليزية والخلافات التى بين البلاد المجاورة . ويقول الكاتب مع ذلك أنه يجب أن تقبل التحدى . فالوحدة الأفريقية لها جذور عميقة فى وعى الأفريقيين ويختتم مقاله بكلمة مشجعة حيث يقول : وختاماً فإننى أعتقد تماماً أنه يجب أن يظهر مارد أفريقى وقد نجد أن هذا المارد شكل رابطة دول أفريقيا أو شكل مجلساً يضم دول أفريقيا ولكن المهم هو أن يتحقق حلم الوحدة الأفريقية وتصبح حقيقة واقعة . ولم تظهر الفكرة المثالية للوحدة الأفريقية فى مؤلفات السياسيين فحسب ، بل نراها خلال جميع مؤلفات « شيخ أتنا دوبروب » التاريخية والاجتماعية التى تتصل بعلم نشاط الشعوب . فقد

ظهرت في أن فكرة المربين والشعوب السوداء من أصل واحد مشترك ، أى أنهم يتمون إلى أصل مشترك ، وكذا ظهرت فكرة الوحدة الثقافية في المجتمع الذى ترجع السلطة فيه إلى المنزل «أى للأمم» وكذا ذكرى الإمبراطوريات السودانية الكبرى . كالكتب الثلاثة الأولى التى كتبها هذا الكاتب والتى يعرض فيها هذه الأفكار تؤدي حتماً إلى الفكرة الأخيرة «الوحدة» وليست هذه الفكرة منصبة على الماضى وإنما تخص المستقبل . على أن يكون مستقبل أفريقيا مطبوع بطابع الوحدة التى ظلت كامنة بالرغم من التقسيم الاستعماري . ويجب أن تم هذه الوحدة على أساس الاتحاد الفيدرالى . كذلك هو الحل الإيجابي الذى اختاره المؤلف والذي عبر عنه في كتابه بعنوان «أسس دولة فيدرالية مقيدة لأفريقيا السوداء» .

وعلى هامش المؤلفات المذهبية التى ألفها بعض المثقفين الأفريقيين عن الماركسية يجب أن نذكر المواقف المعادية للشيوعية التى يتخذها كاتبان أفريقيان هما : أكى لوبا وشيخ حميدو كاني : فالطالبان الأفريقيان بطلا هذين الكتابين يتخذان عشيقات لهما من أنصار الحزب الشيوعي الفرنسي . ان دونير عشيقة كوكوميو موظفة في نفس المصنع الذى يعمل فيه «كوكوميو» والذي يحاطر في كل لحظة بأن يصبح متعطلاً بسبب عدااء العمال له والذين يعبرونه على منوره تجاه الحزب الشيوعي . تسيطر عليه دوير ويشترك في الخلية الشيوعية لكي يحفظ بعمله ، لذلك يتركه العمال وشأنه منذ لحظة اشتراكه . ولكنه يحفظ بمعتقداته القديمة كما هي .

ونرى عند «أكى لوبا» المقابلة الأدبية لآراء سنفور عن اختلاف المصالح بين البروليتاريا الأوروبية وبروليتاريا الشعوب المستعمرة .

وسامبا ياللو بطل كتاب «شيخ حميدو كان» يتخذ صديقة تسمى لوسين . وعقيدة سامبا الإسلامية تحول دون اعتناقه الشيوعية فيقول للوسين «إن كفاحي يفوق كفاحك في جميع الاتجاهات فإنك لم ترتفع قط فوق الطبيعة بل تخاريتها بسلام أفكارك . وتقاتلن في سبيل إخضاعها لك . . . أليس كذلك ؟ أما أنا فلم أقطع الرباط الذى يربطني بالطبيعة وهو رباط وثيق . وأسعى ما أرجو أن أصل إليه هو أن أبني جزءاً حساناً من هذه الطبيعة ونابعاً منها أكثر وأكثر . إنني لا أجرو على محاربة الطبيعة لأنني جزء منها ، إنك حسب اعترافك بأنك بعد أن تحررت آخر كادح من شقائه وتضعيه في الموضع اللائق به متعبرين أن مهمتك قد انتهت وأن جميع الوسائل والأدوات التى تستخدمها في ذلك ستصبح عديمة الفائدة بل وقائية ولن يبق أى حائل يحول بين جسد الإنسان والحرية . أما أنا فإنني لا أكافح من أجل الحرية بل أكافح في سبيل الله .

## الباب الحادى عشر

### أزمة الضمير «الاستعمار»

قال ميكوتورى فى رسالته التى وجهها للمؤتمر الثانى للكتاب والفنانين السود : ليس مجرد صدفة أن ينمو الاستعمار الفرنسى ويترعرع فى عصر النظرية المشهورة وقتذاك والتى اندثرت اليوم هذه النظرية «العقلية البدائية السابقة للمنطق» للكاتب لى برون<sup>(١)</sup>. كما يعطينا الكفاح من أجل إلغاء الرق أطيّب مثل للتبدل الذى يطرأ على الهيكل الفكرى الذى يبنى للرد على مطالب أخلاقية أو سياسية ملحة . وتطور أفكار رجال اللاهوت بخصوص مشكلة الرق له دلالة ، وهكذا فإن الحجّتين التى تستخدمها الأوساط الكنائسية لتبرير وجود الرق كانتا متناقضتين تمام التناقض . فكان ولى عهد البرتغال «دوم هنرى» بعدد العبيد ، فكان بذلك ينقذ أرواحهم من نار جهنم . بينما كان هناك شك لا يزال يخالج نفوس رجال لاهوت آخرين والذين كانوا يتساءلون عما إذا كان الزواج لهم حق روحى (بشرى) وكانوا يميلون بالأحرى إلى الرد بالنفى على هذا السؤال . ويسخر الكاتب مونتسكيو من هؤلاء الآخرين فى صفحته الشهيرة عن الزواج ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه فى عصر مونتسكيو كان هذا التبرير اللاهوتى لوجود الرق قلما يجد أنصاراً جادين .

ومها يكن الأمر فإن المنشور البابوى الصادر عن البابا نيقولا الخامس عام ١٤٥٢ كان يقرر أن كل عبد بعدد يصبح تلقائياً رجلاً حراً . وقد ظل هذا المنشور عديم الجدوى . فبرغم مجهودات الذين كانوا يرفضون اعتبار التعميد كأنه ظرف مخفف للحرمان من الحرية وكانوا يريدون أن يجعلوه على العكس من هذا التعميد أداة لتحرير الرقيق ، فإن هذا المفهوم لم يأخذ به القانون وحتى فى إنجلترا عام ١٧٢٩ صدر قرار من النائب العام برفض الاعتراف بالعبد الذى عمد أنه إنسان حر . ومن ناحية أخرى فقد كانت الفلسفة فى الجزر البريطانية فى ذلك العصر لا تزال مشبعة

(١) وردت بمجلة الوجود الأفرى عدد ٢٤ ص ١٠٦ .

بالعنصرية وكان «دفيد هيوم» يكتب في بحثه بعنوان «نبذة عن الخواص القومية» فيقول : إلى أميل إلى الشك في أن السود أحط من البيض بطبيعتهم . فلم تكن هناك أبداً أمة متحضرة لوها هكذا ولا حتى إنساناً ما بارزاً بأعماله أو بتأمله وتفكيره الفلسفي<sup>(١)</sup> .

ولكن الحركة المضادة للرق انتعت مع ذلك وترعها بعض المثقفين المسيحيين المخلصين لعقيدهم وقام «جرانفيل شارب» و«وليام ويندفورس» في بريطانيا بشن حملة لإلغاء الرق وسنعراف مراحل هذه الحملة .

في عام ١٧٧٢ حصل جرانفيل شارب من قاض في المحكمة الملكية على حكم اعتبر قاسياً وسابقة وأصبح بمقتضاه أن كل رقيق تظاً قدمه أرض بريطانيا تلقائياً إنساناً حراً . وفي عام ١٨٠٧ جعل وليام ويلر فورس البرلمان يقرع بالموافقة على قانون بمنع تجارة الرقيق . وأخيراً في عام ١٨٣٣ ألغى الرق في المستعمرات البريطانية . أما في فرنسا فإن التاريخيين القاطنين في تاريخ إلغاء الرق يقعان خلال حكمين جمهوريين ، ولكن الأب جريموار مقدم القرار (الشهر الخامس من التقويم الجمهورى الفرنسى ٢٠ يناير حتى ٢١ فبراير) في العام الثالى للجمهورية الفرنسية الأولى الذى ألغى بمقتضاه الرق في فرنسا لأول مرة فإن هذا بالرغم من أنه كان من أنصار حكومة المؤتمر إلا أنه كان مسيحياً تقياً وجمهورياً متحمساً . وقد حطم نابليون بحجة قلم مبهودات الأب جريموار . فكان لزاماً علينا أن نتظر عام ١٨٤٨ (الجمهورية الفرنسية الثانية) وكذا شويشير لئلى الإلغاء الثالى للرق في المستعمرات الفرنسية والذى كان إلغاء نهائياً هذه المرة .

فإذا كنا نعتبر أن إلغاء الرق كان ضربة قاسية موجهة إلى العنصرية والفرقة العنصرية إلا أنه في الواقع لم يمنح نهائياً هذه الفرقة العنصرية .

فقد القرن التاسع عشر وجدت العنصرية مرة أخرى من يشرع لها النظريات مثل : الكونت دى جوبينو في بحثه بعنوان (دراسة في عدم مساواة العناصر البشرية) وهذا أول من نادى بهذا التشريع ثم تبعه آخرون خلال هذا القرن وآخرون في بداية القرن العشرين وكانوا هم أصحاب نظريات التوسع الاستعماري الكبير في أفريقيا وفي آسيا مثل الإنجليزي «هوستون ستوارث شامبرلن» والأمريكي «لو ترووب ستودار» .

ويتناول هؤلاء المؤلفون خاصة فكرة انحطاط العقل عند السود . ولم ينس المثقفون الأفريقيون الاستشهاد بكثير من الفقرات التي وردت في كتب هؤلاء المؤلفين . فقد كانت هذه الفقرات أصليح

(١) استشهد بهذا النص «بريك ونمز في مجلة الوجود الأفريقى عدد ٢٤ . ٢٥ ، ص ٩٣ .

الفقرات لإثارة سخط أوروبا المنحرفة وأفريقيا الوطنية . فيستشهد شيخ أتاديوب مثلاً بالنص المشهور الذي كتبه الكونت دي جوينو عن الانفعال الفني عند الزنحي فيقول : إننا إذا سلطنا مع الإغريق ومع أرجح الناس عقلاً في هذا الميدان فإن الإثارة والحساس هما حياة العبقرية الفنية وأن هذه العبقرية نفسها حينما تكون متكاملة تقرب كثيراً من الجنون فإننا لن نذهب باحثين عن أسباب الخلق الفني في أي شعور منظم وحكيم من مشاعر طبيعتنا . بل وفي هياج الحواس وفي تلك الانتفاضات الطموحة التي تدفع الحواس إلى إدماج الروح بالمظاهر لكي تنتج شيئاً يعجب به الناس أكثر من الحقيقة . ومن ثم نجد الاستنتاج الذي يفرض نفسه بقوة وهو أن الينوع الذي انتبخت منه جميع الفنون غريباً عن الغرائز المتعلقة بالحضارة ، وهذا الينوع يختص في دم الزنوج ، فالزنحي لديه أعلى درجة من قوى الحس التي بدونها لا يمكن أن يكون هناك فن ، ومن جهة أخرى فإن عدم وجود الاستعداد الذهني يجعله لا يصلح تماماً لممارسة الفن نفسه ولتقدير المبتكرات السامية التي يستطيع أن يتجها هذا التطبيق النبيل لذكاء البشر . فلكي يبرز الزنحي قدراته يجب عليه أن يندمج مع عنصر بشري موهوب بطريقة الزنحي . فالعبقرية الفنية غير الموجودة عند العناصر البشرية الكبرى الثلاثة لم تظهر فجأة إلا نتيجة لاندماج البيض والسود<sup>(١)</sup> .

ويلخص ث . س . تيدياني نظرية ردل هذه بالآتي : يوجد أصل يمكن أن نسميه أصلاً أيديولوجياً اجتماعياً بدائياً متطوراً ، وعلمياً أيضاً تتمتع به أوروبا . ويبدو أن الاختلاف بين طريقتي التفكير التي تتجاذب كل منهما مع مرحلة مختلفة ولكنها متتابعة ومتعاقبة للحضارة وكلمة البداءة هي التي تتلاءم مع التعبيرات عن المستوى الأدنى . وتسير الأمور كما لو كنا نستطيع أن نتصور تطوراً للفكر البشري يصلح للإنسان عامة . ويشرح الأستاذ محمد عزيز الأحبابي عميد كلية الآداب في الرباط كيف أن أخصائي علم أصول السلالات البشرية وطبائعها الفرنسي قد عدل عن نظرياته الأولى إذ يقول : كيف نفسر الاختلافات الصارخة التي تفرق بين الشعوب ؟ أولاً لا تكون هذه الاختلافات مطلقاً نوعية حتى يضطر « ليني بول » أن يطرح جانباً التمييز الذي كان قد نادى به وهو الفصل بين الفعلية المنطقية التي تتميز بها المجتمعات المتحضرة والعقلية السابقة للمنطق التي تتميز بها المجتمعات البدائية . فصل هذا العدول بروح موضوعية نزيهة تدعو حقاً إلى الإعجاب . وربما دفعه لهذا العدول عن الرأي الأول حاجة الأوروبي إلى إدخال التماسق في كل شيء وبأى ثمن حتى في

(١) وردت بكتاب « الام الزنحية والثقافات ص ٣٣ و ٣٤ .

الميدان النفسى . ولكن «لى» برول استطاع فى مدى ثمانية وعشرين عاماً أن يدرس الحقيقة دراسة عميقة فأدى به ذلك إلى تفسير أصح وأحسن للوقائع التى جمعها من مستندات متباينة<sup>(١)</sup> إن هذا الإسراف فى الاستشهادات التى أخذ بها المثقفون الأفريقيون الناطقون باللغة الإنجليزية مثل : دى جرافت جونسون . وإن هذا الإسراف لم يحدث بطريق واحد ، فالحركة الوطنية الأفريقية كثيراً ما لجأت إلى استشهادات المدافعين عنها وكذا استشهادات المناهضين لها ، ومن هذا استطاع هؤلاء المثقفين أن يهلوا من أدب معاد للاستعمار ، فها وازدهر ابتداء من الحرب العالمية الثانية . فإن أسماء مثل ب . تمبلر مؤلف كتاب «فلسفة شعب باتو» أو «مارسيل جربول» مؤلف كتاب «إله الماء» هذه الأسماء أصبحت مألوفة لدى قارئ للمجلات الأفريقية تماماً مثل اسم لى برول .

ومن ناحية أخرى فإن آراء أخصائى علم أصول السلالات البشرية وطبائعها الأوروبيون اتخذت دون شك أهمية كبرى بالنسبة للمثقفين الأفريقيين ذلك لأن الميدان العلمى الحديث بدا هؤلاء المثقفين وكأنه أهم ميدان . فأصبح تمبلر وجربول هما المؤلفان اللذان يستشهد بهما هؤلاء المثقفون الأفريقيون دائماً .

لذلك نجد أن شخصين مختلفين تماماً من الوجهة الروحية (الأمير ديكاكوا الذى تقدم إلى مؤتمر الشعوب الأفريقية المتعقد فى أكراسنة ١٩٥٨ كرئيس أركان حرب جيش التحرير الوطنى للكيريون - وليوبولد سنفور - شاعر المصالحة المسيحى) نرى أن كلا منهما يلجأ إلى الاستشهاد بالمبشر الفلنكى ومفسر علم تكوين العالم لدى شعب قبائل «دوجون» وهو الأب تمبلر . ويرى ديكاكوا أن تمبلر وجربول وهما أول من استكشف الفكر الزنجرى . كما يرى سنفور (كما سبق أن ذكرنا) أن مؤلفاتها يجب أن توجد فى مكتبة كل أفريقى مثقف .

وفى الواقع فإن اتساع مدى الحركة الفكرية المؤيدة لتحرير المستعمرات فى القرن العشرين يمكن أن يقارن باتساع مدى التيار الفكرى الذى كان يطالب بإلغاء تجارة الرقيق الأسود . فقد كان للقرن العشرين كتاب أمثال : يشارزستو ولنكولن والأب جريجوار وشوبلشر

(١) ورد بمقال بعنوان «حديث عن المدنية والثقافات» صدر بمجلة الوجود الأفريقى عدد ١٦ ص ١٠٠ - ١١٠ وكذا مذكرات لى برول التى نشرت بعد وفاته سنة ٤٩ وقد عمل بها بعد التصحيح عام ٣٨ وقد نشرت بعنوان «الوظائف العقلية فى المجتمعات الدنيا» ويعرض لى فى هذه المذكرات نظريته عن الفعالية السابقة للمنطق التى تتميز بها الشعوب البدائية .

وجرانييل شارب وويليرفوس . وهم نخبة لامعة من المثقفين والكتاب والعلماء ورجال السياسة الذين كشفوا النقاب في مؤلفاتهم وفي خطبهم عن الصورة الحقيقية التي تخفى وراء الاستعمار . ولقد كان هذا التطور في الواقع ظاهرة ذات أهمية عظمى . فمن المحتمل ألا يسير تحرر أفريقيا بمثل السرعة التي تمت في كل من ( الهند . . غاندى ) وكذا كفاح هوشي منه وسوكارنو والوطنيين الفرنسيين والمغاربة - لولا أن هذه القارة قد وجدت نخبة من المثقفين الأوروبيين يمتدحون في إطناب هذا التحرر . وتعتبر هذه الفترة بلا شك فترة فاصلة في تاريخ الفكر السياسي في القرن العشرين ، ومن الطبيعي أن هذه الموجة المضادة للاستعمار قد وجدت نقطة ارتكاز رئيسة في الميدان المعنوي في كفاح الدول المستعمرة ضد العنصرية المخرية ، وكذلك في الوعود التحررية التي قطعها تلك الدول للشعوب المستعمرة خلال الحرب العالمية الثانية . وكانت الدول المستعمرة قد ضعفت خلال خمس سنوات نضال ، فشكل ذلك نقطة ارتكاز مثالية للكفاح من أجل التحرر .

وإذا فإن نمو الفكر الأوروبي المعادي للاستعمار وكذا تيارات التغيير التي لمح لها رئيس وزراء إنجلترا في خطابه المشهور الذي ألقاه في مدينة الكاب سنة ١٩٦٠ وكذا تيارات التغيير التي كانت تهب على أفريقيا وخارج أفريقيا في نفس هذا الوقت ، كل ذلك كان يقع في إطار مسيرة التاريخ . ولقد كان فريوس وهو من أكبر أخصائي علم أصول السلالات البشرية وطبائعيها الأفريقيين بدافع من قبل « تيمبلر وجريول » عن نظرية تناقض ما جرى عليه العرف من آراء . فقد أعلن في صوت مدو عن المصالح الكبرى للحضارات الأفريقية . فقد كان يرى في حضارة شعب « بورما » في عصر تامل « ابث » البرونزية أنها إحدى ذكريات قارة الأطلنطيس الأسطورية .

ولقد أظهرت « ليليان كستلوت » ضروب الحماس التي كانت تجيش في صدور الطلبة الأفريقيين في فترة بين الحربين ، وكيف كانوا يلهمون مؤلفات الكاتب الألماني « ديلافوس » الذي نشر كتبه عن ابن بطوطة وابن حوكل وابن خلدون والبكري . وعن طريق قصص هؤلاء عرف الشباب الأفريقي عظمة الإمبراطوريات الأفريقية في القرون الوسطى . وفي مجال مختلف قدم « مانوي » صوراً للمستعمر - والمستعمر في كتابه « نفسية الاستعمار » يبين فيه كيف أن المستعمرين الأوائل كانوا يعتبرون كأنصاف آلهة والذين ذكرت الأساطير أنه عند حضورهم استقبلوا بترحاب وود وأنهم وضعوا في مكانة الأسلاف ، وكان التامس تتبع أفكارهم كما كان يفعل الملاشاش مع الأسلاف تماماً - ولكنه يكشف أيضاً عقلية المستعمر الذي يعكس على المستعمر عقدة الشعور بالذنب وعقدة الجنس بوجه خاص فيجعل منه ( من المستعمر ) كبش فداء .

وفي نفس هذه البعثات العلمية (ثبات علم السلالات) تلفت أنظارنا أيضاً الاعتقاد في إله خالق لدى قبائل أفريقيا. تلك النظريات التي تحارب صور الوثنية ذات العبادات والآلهة المتعددة - وفي بريطانيا خصص كتابان ألفهما أكثر من مؤلف أحدهما بعنوان «العالم الأفريق» والآخر «أفكار أفريقيا عن الإله».

كما يدافع «جول شوم» البلجيكي عن الأنبياء السود ويعترض عن معاملة سلطات بلاده لسيمون كيميango. ويصم قوة الحكم الذي صدر بإعدام هذا النبي، ويكشف عن المخالفات التي حدثت في القضية، فراه يكتب قائلاً في كتابه بعنوان «آلام سيمون كيميango: لقد حدثت نياقة الأب فإن وينج سنة ١٩٥٨ عن هذه القضية بأنها سارت وفق قواعد القانون ولكننا نتعقد أن نياقة الأب سرجع عن رأيه حين يرى ما جمعنا من مستندات وسوف يعترف أن هذه القضية لم تطبق عليها أبسط قواعد حقوق الإنسان، وكذا يطبق فيها المفهومات البدائية لهذه الحقوق. وأنها كانت خرقاً للقانون.

وإذا كان بعض رجال الكنيسة يملسون على مقاعد المحكمة والالتزام إلى جوار رجال الاستعمار فإن آخرين غيرهم يقفون في طليعة الكفاح من أجل تحرير أفريقيا أمثال الأب «ميكائيل سكوت» الذي قد وهب نفسه لينطق بلسان مكافحي جنوب غرب أفريقيا (شعب هيريوس في هيئة الأمم) أو نياقة الأب «تريفور هودد لستون» الذي كتب مقدمة كتاب «موجا جيكاردا» عن كينيا وعنوانه «أرض الشمس المشرقة».

أما عن حماس المبشرين الكاثوليك الناطقين باللغة الفرنسية في أفريقيا فإنه ليس أقل من حماس من سبق أن ذكرتهم. فقد كانت المجلة الأسبوعية «أفريقيا الجديدة» التي تصدر في دكار تحت إدارة الأب «دي شوا» في عام ١٩٥٠ إحدى الصحف الناطقة بلسان الوطنيين الأفريقيين - وفي مدغشقر كان الأساقفة الأوروبيون قد اتخذوا غداة ثورة ١٩٤٧ مواقف فعالة وبصفة خاصة لصالح التيار الوطني الملاحشي.

أما المؤرخون فتجد أن أحد الكتب التي يستشهد بها المثقفون الأفريقيون الناطقون باللغة الإنجليزية في أفريقيا الغربية هو كتاب «ريمون مشليه» وهو أحد سلافة المؤرخ الفرنسي «جول مشليه» وعنوان هذا الكتاب «الإمبراطوريات الأفريقية والحضارات» وقد نشره مركز الكتاب الاشتراكي في لندن عام ١٩٤٥ ضمن مجموعة من الكتب الصغيرة التي نشرت حركة اتحاد أفريقيا. ويرمم «مشليه» في كتيبه هذه الخطوط العريضة لتاريخ غانا ومالي وغيرها ويؤيد في حرارة نظرية

فردنيوس عن قارة أطلانطس واتصالها بأفريقيا في قديم الزمان . ومن ناحية أخرى فقد كتب « جورج بادمور » مقدمة هذا الكتيب وقد سبق المقدمة عرض للكتاب بقلم « تانس كونارد » وهو أحد الشخصيات البارزة للسيار البريطاني المضاد للاستعمار .

كما يعتبر الصحفي الأديب « بازيل دافدسون » الإنجليزي رائداً من رواد التاريخ الأفريقي في نظر أصحاب الحركة الوطنية . فقد كتب هذا الصحفي الأديب كتابين « استيقاظ أفريقيا » و « إعادة اكتشاف أفريقيا القديمة » فقد أحدثت مؤلفات هذا الكاتب دوياً عميقاً للأثر لدى المثقفين الأفريقيين .

أما في مضمار التأليف في اللغات فقد هاجم بعض الأخصائيين الأفريقيين الأفكار الموروثة والتي تعتبر اللغات الأفريقية فقيرة من حيث المفردات ، فكان « تيودور مونو » مدير معهد أفريقيا السوداء الفرنسي في دكار يجيب على هذا الاتهام في مقدمة لكتاب ألفه أحد المدرسين في اللغة الفرنسية ولغة وولف فيقول : إذا كان الملاحون الأوائل قد اخطأوا حين كانوا يعتبرون لغة قبائل « هونتوت » كأنها تناح الكلاب ، فإننا نخطئ خطأ أشنع من خطئهم حيناً نصف اللغات الزنجية الأفريقية بأنها لغات بدائية بسيطة . فتساءل هل تعتبر اللغة بسيطة إذا كان لها عشر كلمات مختلفة لتعبر عن الضمير الفرنسي الواحد ونحن « كما هو الحال في لغة « ناما » مثلاً وكذا يعبر بأربعة أفعال متتالية عن فعل « يأكل » وذلك وفق ما يأكله الشخص . كما يعبر بأربعين تغييراً للتمييز بين السرعات المختلفة عند الشخص كما هو الحال في لغة « أيونه » وهل تكون اللغة بسيطة حيناً يكون لديها فعل خاص للتعبير عن إفراغ الجعبة وفعل خاص للتعبير به عن صب سائل من إناء ذي فتحة ضيقة كما هو الحال في لغة وولف أو حيناً يكون لديها ١٨٣ كلمة للتعبير عن كلمة « كبير » الوحيدة في لغتنا كما هو الحال في لغة « نوبا » أو ٣١١ مرادفاً في لغة « هوسا » ؟

وفي جامعة السربون فقد فعل الزمن فعله . فقد انتقل كرسي تاريخ الاستعمار من « جورج هاردي » المؤرخ المعاصر للمنحمة الاستعمارية إلى أستاذ أخصائي في المغرب « شارل أندريه جوليان » وهو أحد المهتمين بدراسة الحركة الوطنية في شمال أفريقيا والذي يعتبر كتابه « أفريقيا الشمالية تسير قدماً » نبوءة لمستقبل هذه المنطقة (وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٢) تماماً كما كان الحال مع كتاب « يقظة أفريقيا » فقد تنبأ لأفريقيا السوداء كلها وقد أسهم علماء الاجتماع والجغرافيا في هذه الحركة . فنشرت مجلة الوجود الأفريقي دون انقطاع نصوصاً (لجورج بالنديه) وهو يعمل الآن أستاذاً لعلم الاجتماع الأفريقي في السربون . . . لم يتوان هذا الأستاذ في توجيه نقده إلى السلطات الاستعمارية . كما

خصصت هذه المجلة عدداً خاصاً لمؤلفات «ريشارد مولارد» والتي جذبت مؤلفاته في الجغرافيا الإنسانية الانتباه لنظروف الراهنة المزعة التي يعيش فيها الأفريقيون في بعض المناطق . وكانت ثمرة المجهودات المختلفة أن ظهرت نظرية في مؤلفات أخصائي علم السلالات والأصول ، هذه النظرية هي نظرية «النسبة الثقافية» ومعناها أنه ليست هناك ثقافة تعتبر بعنصرها أسمى من ثقافة أخرى . ولقد دعا «كلود ليفي ستراوس» لهذه النظرية وأرسى جذورها . ولذا فقد عرفها ج . ج ماكيه «على الوجه التالي : -

١ - يجب أن تتجنب أي حكم بصدد قيمة ثقافية أجنبية إذا كان هذا الحكم مجرداً من الأسس الموضوعية .

٢ - ليس لأي ثقافة مشترك فيها قيمة مطلقة أكثر من أي ثقافة أخرى .

٣ - ليس هناك ما يبرر فرض ثقافة معينة أو يتحدد انتشارها<sup>(١)</sup> .

ولكي نقيس أهمية التطور الذي مهد له التحرر الأفريقي بالفكر المعاصر يجب أن نرسم بلا شك لوحة للأدب الأجنبي كاملة ، أي بكل ما فيها حتى الناحية الاستعمارية والأجنبية حيث تظهر فيه العنصرية التي لا تعرف الحجل أو الندم وضعت تحت ستار الجلال في الوصف . ولم يلبث المثقفون الأفريقيون أن فضحوا هذا الأدب . فقد خصص «خيرقل مغاليلي» في الجزء الثاني من كتابه (صورة أفريقيا) صفحات عديدة لدراسة صورة أفريقيا التي يعكسها القصص الإنجليزية ولم يحس «مغاليلي» سحرته اللادعة عن بعض المؤلفين مثل : شارلز سكولي أو ساوره جرندرد ميلن الذين بلغت أحكامهم وآراؤهم ذروة مخيفة . ولكن مغاليلي يقدر مواقف بعض الكتاب أمثال «أوليف شريز وولم بلومر ولورانس فان ديريوست ونادين حورديمر» الذين درسوا في كثير من العطف مصير الإنسان الأسود المضطهد - ولكن الشيء الذي يسترعى الانتباه أكثر هو أن هذا المؤلف (مؤلف كتاب صورة أفريقيا) كان يتحدث على بعض كتاب روائيين آخرين ولو أنهم كانوا في صف الكفاح ضد التفرقة العنصرية أمثال «آلان باتون» فما عسى أن يوجه مغاليلي من اللوم نحو مؤلف كتاب «صحيحي يا بلادى الحبيبة» ؟ وباختصار فإن هذا الكتاب يصور سلبية الأفريقيين ، ولذا فإن مغاليلي يعتبر الأفريقيين قوماً مستسلمين أكثر من اللازم وأنهم على استعداد لتقبل الآلام والإذلال دون أن يذودوا عن أنفسهم .

(١) ورد بمقال النسبة الثقافية الذي صدر بمجلة «لوجود الأفريق» ص ٦٠ العدد ٣٣ .

ولقد ثار ريتشارد رايت على هذا النوع من الوصاية العاطفية ويرى أن كتاب «كوخ الموم» خير مثل لهذه الوصاية ، ولذا فقد كتب ردًا على هذا الصنف من الأدب الرحيم الذي يتقزز منه كتابه بعنوان «أبناء الموم» وهو عبارة عن مجموعة قصص تختلف شخصياتها عن الزنجى الأمريكى فى كونها متاخلة . وفى الواقع فإن شخصية العبد العجوز فى قصة «هاريت نيشارد وستوفى» قد أصبحت كريمة فى نظر الوطنيين الأفريقيين حتى أن اصطلاح «الموم» قد أصبح إهانة وسبة وأصبحت مرادفة لمعنى اصطلاح «خادم الرأسمالية والاستعمار» . ونجد ذلك التعبير مستعملا بالمعنى الجديد فى مقال افتتاحى فى صحيفة «مرشد غرب أفريقيا» الناطقة بلسان الدكتور «ازيكويه» فى نيجيريا وكذا فى مقدمة الكاتب الجزائرى «هنرى كريا» فى كتابه صورة عامة للأدب المغربى الجديد (١).

## حدود الثورة

لقد كانت شعارات الوطنية الكبرى هى الاستقلال والوحدة ، ثم أضيفت الاشتراكية والحياة إلى مجموعة الأفكار الدافعة لفكرة الوحدة الأفريقية . ولكى نقيس تأثير الفكر على العمل فإننا نرى أهمية مقارنة النتائج التى حصننا عليها بالأهداف النظرية لتلك الأفكار الدافعة . ويقدم لنا مؤتمر «أديس أبابا» الذى عقد فى مايو سنة ١٩٦٣ وحضره جميع رؤساء ٣٢ دولة أفريقية مستقلة تقريباً - يقدم لنا هذا المؤتمر بيانات ثمينة للقيام بهذه المقارنة أو بعملية الجرد هذه . فقد أثمر الكفاح من أجل الاستقلال وآتى أكله . فإذا استثنينا أفريقيا الجنوبية والمستعمرات البرتغالية وبعض الأراضى الإسبانية واتحاد وسط أفريقيا الفيدرالى إلى بعد ست سنوات بعد استقلال غانا - فإن أفريقيا أصبحت كلها مستقلة اليوم . ومن المشاهد أن آخر قلاع للاستعمار أصبحت مزرعة وخاصة فى أنجولا حيث الكفاح مستمر فى إصرار وفى اتحاد روديسيا - نياسلاند الفيدرالى فقد أُنذر تفككه بقرب نهاية سيطرة المستوطنين البيض ولو فى روديسيا الشمالية وفى نياسلاند على أقل تقدير .

ومع إنشاء لجنة تنسيق المعونة المقدسة لحركات التحرير فقد دفع مؤتمر أديس أبابا عملية إزالة

(١) ورد مقال «هنرى كريا» مجلة الوجود الأفريقى عدد ٣٤ و ٣٥ ص ١٧١ .

الاستثمار دفعة قوية كما سمح بقيام عمل مشترك بين الدول الأفريقية يهدف إلى المقاطعة السياسية وبالأخص داخل المنظمات الدولية والاقتصادية كاتحاد جنوب أفريقيا والبرتغال .  
فللنظرة الأولى تبدو النتائج مرضية للغاية بالنسبة للوطنيين الأفريقيين وفي الواقع أنه من الملائم أن نساءل إلى أي مدى يعتبر هذا الاستقلال حقيقياً .

فإذا ما استثنينا الخمسة والثلاثين مليوناً من السكان في نيجيريا وكذا سكان الكونغو ليوبولد فيل البالغين ١٥ مليوناً تقريباً فلا نجد أية دولة من الخمس والعشرين دولة مستقلة في أفريقيا . والتي تقع جنوب الصحراء الكبرى ، لا نجد دولة واحدة يزيد عدد سكانها عن بضعة ملايين . وحقيق أنه لا تقاس قوة الأمة بهذا المقياس العددي وحده . ولكن فيها يختص بالقوة الاقتصادية فإن الوافدين حديثاً إلى المحفل الدولي (هيئة الأمم) يعتبرون ولا سلاح بأيديهم من هذه الناحية . وعوامل التبعية التي كان يتسم بها اقتصاد الحلف الاستعماري لا تزال قائمة إلى حد كبير . حقاً لقد سمح الاستقلال هنا وهناك بدفع نمو الاقتصاد المبني على الهبات دفعة صحيحة أصبحت حقيقية كما كان يروح لذلك «فرانسوا بيروا» فيها كان الأمر وحتى إذا كانت الهبات الآتية من نيويورك أو بروكسل أو جهات غيرها مستمر طويلاً في تمويل اقتصاديات تتعثر فإنه يلزم لتلك الدول الصغيرة سنوات عديدة حتى تستطيع تقليل حجم المعونة التي مهما اتخذت معها من احتياطات إلا أنها لا بد وأن تقوم عليها علاقات التبعية .

ولكن أخطر شيء بلا شك هو أنه في نفس اللحظة التي يحاول فيها حكام العالم الثالث التحرر من التخلف فإن الارتباطات الاقتصادية العالمية سوف تقلل من الموارد الطبيعية لهذه البلاد . فقد لاحظ «سيكوتوري» في أغسطس سنة ١٩٦١ إنه في العشر السنوات الأخيرة قد زادت أسعار المنتجات المصنوعة في السوق التجارية الدولية بنسبة ٢٤٪ وقلت أسعار المواد الأولية ٥٪ .

وقد بين تقرير منظمة الجاب (المنظمة العامة للتعريف والتجارة) لعام ١٩٦١ هذا التطور ، ويضيف أن أسعار المواد الأولية ومواد المناطق الاستوائية قد انخفضت انخفاضاً ملموساً ومنظماً منذ عدة سنوات كما كتبت المجلة الأسبوعية «أفريقيا الفتية» في ديسمبر سنة ١٩٦٢ كتبت تقول : إن أول استنتاج نستخلصه من ذلك الوضع هو أن عجز الميزان التجاري في الدول النامية يزداد خطورة وفي سرعة غريبة .

ومن ناحية أخرى فإن الدول الأفريقية المستقلة تعرف معرفة تامة خطورة مثل هذا الوضع ، ويدلل على هذا الفهم تلك المجهودات التي تبذلها تلك الدول لكي تحصل بصفة خاصة على تثبيت أسعار البن والكافور بفضل عقد اتفاق على الصعيد الدولي العالمي بين الدول المنتجة والدول المستهلكة . وقد سارت فكرة وحدة أفريقيا قدماً .

ففي يوليو سنة ١٩٦٢ وضعت مجموعة دولة الدار البيضاء في القاهرة الأسس الأولى لتنظيم سوق أفريقية مشتركة . في حين أنه في أديس أبابا نجد أن القرار الخاص بالشؤون الاقتصادية يقترح فقط فكرة إنشاء لجنة للدراسة لإنشاء منطقة تبادل حر وإنشاء تسعيرة خارجية مشتركة دون ذكر لكلمات «سوق مشتركة أفريقية» .

وقد تقرر مع ذلك في العاصمة الأثيوبية إنشاء بنك تنمية أفريقي ، وبين ذلك المشروع مدى اهتمام رجال السياسة الأفريقيين بالتحرك قدر المستطاع من سيطرة رأس المال الأجنبي . ومن جهة أخرى فإن الفارق بين احتياجات أفريقيا ومواردها التي يمكن استغلالها مباشرة لدرجة الإزعاج ، فإننا نستطيع أن نقيس هذا الفارق مثلاً بمحجم المعونة الاقتصادية التي وعدت بها الثمان عشرة دولة الأفريقية المشتركة في السوق الأوروبية المشتركة (وقدرها ٨٠٠ مليون دولار في ٥ سنوات) في حين أن الشجار الذي تم في بروكسل حول قبول بريطانيا عضواً في السوق الأوروبية المشتركة قد نبه هذه الدول الأفريقية الثمان عشرة إلى مدى تبعيتها والسيطرة عليها .

وعلى الصعيد السياسي فإن جعل أفريقيا بلقناً جديداً كان له وجهة نظر معينة في بعض المزايا التكتيكية . فقد منح مجموعة الدول الأفرو آسيوية في هيئة الأمم عدداً هائلاً من الأصوات المؤيدة لها ، ولكن مع ذلك كان مصدر ضعف في غالب الأحيان . فإن وحدة العمل كان من الصعب تحقيقها إلا في بعض المواضع العامة جداً مثل موضوع الاستثمار . وفي الحقيقة لم يلبث أن أحدث هناك انشقاق بين دول مجموعة فيروفا ، وهي الدول الأكثر عدداً والقريبة إلى الغرب ، فهي تتكون في غالبيتها من المستعمرات الفرنسية القديمة والمشاركة في الاتحاد الأفريق الملاجشي (ويضم هذا الاتحاد ١٢ دولة منها) وبين مجموعة الدار البيضاء الأكثر تعلقاً لفكرة الوحدة الأفريقية والتي يغني الكثير من حكامها عطفهم الطبيعي على الماركسية .

ومع ذلك فإن المنافسة بين هاتين المجموعتين لم تستمر طويلاً بعد مؤتمر أديس أبابا الذي ضمهما معاً في إطار منظمة الوحدة الأفريقية . فدون أن نطيل في سرد الأحداث التي سمحت بإيجاد هذه الوحدة (بعد الشقة بين غيا وروسيا واستقلال الجزائر ونهاية انفصال كاتانجا وخلافه . .) فإنه يجب

أن نلاحظ أن أشد مناصري الوحدة الأفريقية حرارة هم الذين انتظموا إلى جانب رأى أقل المناصرين حرارة : فشروع الميثاق الأفريقى الذى قدمه الرئيس نيكروما الذى اقترح فيه إقامة حكومة أفريقية قاربة مع برلمان على مستوى القارة . هذا المشروع أهل لصالح المشروع الأثيوبى الذى لم يفعل أكثر من أنه مشروع عقد اجتماعات دورية بين رؤساء الدول ووزراء الخارجية . ولم يقتصر رئيس دولة غانا فى أن يمهد لانتصار وجهة نظره . فقد كان كتابه الأخير بعنوان «أفريقيا يجب أن تتحد» قد صدر قبيل افتتاح المؤتمر وكانت الأبدى تتناقل نسخه فى أروقة المؤتمر . ويؤكد المؤلف فى هذا الكتاب قوله خاصة : إن أكبر خطر يهدد أفريقيا الآن هو الاستعمار الجديد وأداته الرئيسية هى جعل أفريقيا بلقائناً جديداً .

وقد أظهر المؤلف عدم ثقته إزاء الاتحادات الإقليمية والتي تضم رؤساء الدول الأفريقية والتي لم ينص عنها فى الميثاق على أنها مراحل تمهيدية للوحدة الأفريقية التى يجب بناؤها بالرغم من أن الكثيرين كانوا يؤيدون هذه الاتحادات ومنهم الرئيس سنفور .

والتحفظات التى أبدتها الكثير من الدول الأفريقية تجاه التجمعات الإقليمية ونجاء المعونة الأجنبية قد عبر عنها أيضاً خلال المؤتمر الأول لوزراء الخارجية لمنظمة الوحدة الأفريقية المنعقد فى دكار سنة ١٩٦٣ . وقد تزعم الرئيس سيكوتورى هجوماً على دول الاتحاد الأفريقى الملاجشى . وقد كتبت المجلة الأسبوعية الجزائرية «ثورة أفريقيا» فى هذا المضمار فى أغسطس سنة ١٩٦٣ ، وكيف أن هذا المجهوم قد فشل فشلاً مؤقثاً كتبت تقول : إن الاتحاد الأفريقى الملاجشى مازال له حتى الآن مكانة متينة بالرغم من اصطدامه بالمجهوم . كما ذكرت المجلة المعونة الفرنسية التى تقدمها فرنسا والسوق الأوروبية لهذه الدول ، ثم استطردت المجلة تقول . وهكذا اكتملت هيئة فكرة «المجموعة الجغرافية الأوروبية الأفريقية فى هذا الاتحاد الملاجشى الأفريقى الذى يعبر فى الواقع عن الوجود الفرنسى فى أفريقيا» .

ولا يجب أن تقلل من قيمة نتائج مؤتمر أديس أبابا ، فإن الحصول على إجماع ثلاثين دولة حدث قلما يقدم لنا التاريخ مثيلاً له . ويستطيع مناصرو الوحدة الأفريقية الأكثر حماساً أن يعملوا على أن يكون ميثاق الوحدة الأفريقية نقطة بداية لا نقطة نهاية .

ومهما كانت فكرة جعل أفريقيا بلقائناً جديداً فإنها ما زالت مسيطرة وسائدة فى القارة السوداء حتى لحظات الاستقلال . وما يسترعى الانتباه أن المجموعتين الكبيرتين المتكاملتين (مجموعة الأربع عشرة دولة التى تتكون منها أفريقيا الغربية الفرنسية سابقاً وتوجو وأفريقيا الاستوائية الفرنسية سابقاً

والكاميرون ومجموعة شرق أفريقيا البريطانية واتحاد أفريقيا الوسطى الفيدرالى) قد تفتتا في لحظة تمررها .

ولم يفت بعض العقلاء من أن يدعوا أن فكرة بلقنة أفريقيا هذه إنما جاءت نتيجة تدبير المستعمرين القدماء وأن هذا التدبير قد أحكم ورتب بعناية فائقة . فقد أكد سيكوتورى بأن معارضته للقانون الأساسى ولدستور عام ٥٨ قد تركزت أولاً وأخيراً على التفتيت الذى كان يعدّه أساساً القانون الأساسى ويقوم بتنفيذه الدستور المذكور . كما أظهر ليوبولد سنفور تحوفه من تفتت أفريقيا حين كان يضع الخطوط الرئيسية لدولة مالى . وما لا شك فيه أنه بالنسبة للوطنيين الأفريقيين الذين يعتبرون قضية وحدة القارة الأفريقية نهاية لا غنى عنها للاستقلال فإن القانون الأساسى ورابطة الشعوب الفرنسية يقيان موضع ريبة . وكذلك يظل موقف حكومة ماكميلان بالرغم من مواقفها المتعددة ضد التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا . . يظل موقفها مريباً أيضاً في نظر هؤلاء المواطنين . ويستطيعون أن يقولوا إن كل شيء قد سار حقاً كما لو كانت الحكومة البريطانية قد عيّنت تماماً بتوقيت استقلال تنجانيقا وأوغندا وكينيا كي تجمد كلا من هذه الدول في ميلها إلى الاحتفاظ بطابع خاص . وكما يستطيع الوطنيون أيضاً أن يؤكدوا أن المملكة المتحدة لكي تتم إلغاء سلطة الأقلية الأوروبية في أفريقيا الوسطى فإنها لا تقوم بهجوم مباشر ضد نظم السابورى الفيدرالية وإنما تقوم بتفتيت يتم على مراحل حتى أنه أتاح لثلاث دول سوداء أن تنشأ<sup>(١)</sup> .

ولكن حين انهار اتحاد مالى الفيدرالى القصير الأجل اعترف حكام السنغال بأنهم قد أساءوا تقدير قوى القوميات الصغيرة . ومن الطبعي أن تصطدم بلا شك أية محاولة للوحدة بالترعة الإقليميّة التي لا تتسم بالمظهر الدبلوماسى .

فإننا نذكر خاصة حركات الهجرة التي اضطرت إليها رعايا توجو وداهومى المقيمون في ساحل العاج على أثر اضطرابات حدثت هناك . ونعرف أن إحدى مباريات كرة القدم سببت أزمة دبلوماسية

---

(١) يجب أن نذكر أن بريطانيا اجتمعت مع ذلك في المحافظة على الوحدة الاقتصادية لأراضى شرق أفريقيا ، وذلك بأن أعدت قبل استقلال تنجانيقا (مركز خدمة شرق أفريقيا المشترك) الذى يقوم بعملية تنسيق في هذا الميدان . ومن جهة أخرى بعد مؤتمر أديس أبابا بقليل اجتمع جوموكيت وميلتون اوبوتى وجوليوس نيريرى لإرساء أسس اتحاد فيدرالى ينمى مع الأهداف التي خطتها منذ سنوات حركة الوحدة الأفريقية في سبيل اتحاد فيدرالى لشرق ووسط أفريقيا . وكان جوليوس نيريرى قد فكر لحظة في تأجيل إعلان استقلال تنجانيقا حتى يتبع ذلك التأجيل اتحاد شرق أفريقيا الفيدرالى .

حقيقية بين دولتين من دول أفريقيا الاستوائية سابقاً .

وكان فرانز فانون يفسر العدوان القائمة بين القبائل ونتائج هذه العداوة وأثرها في زمن الحكم الاستعماري ، فقد كان يفسر هذا على أنها نوع من التجنب . ويرى مؤلف كتاب « الملعونون في الأرض » أن العالم الاستعماري الذي لا يستطيع المستعمر أن يتحملة يجعل منه شخصاً ترسب في نفسه الأحقاد ووجبة الانتقام والظلم إلى الحرية بدون أن يستطيع التحرر . ويكتب فانون قائلاً :  
وحينئذ فإن هذا العداء الكامن في حنايا المستعمر سيضطرون أن يفرغه أولاً على أهله . إنها اللحظة التي يريد فيها كل زنجي أن يغيب الآخر . حيث إن رجال الشرطة وقضاة المحاكم لا يستطيعون حل جميع المشاكل المتراكمة أمامهم نتيجة للزيادة المذهلة للجرائم في شمال أفريقيا .

وبعد الاستقلال وبالإشارة إلى حادث اضطرابات ساحل العاج على وجه الخصوص نرى أن قانون يلقي التبعة على عاتق البرجوازية الوطنية التي تصل إلى الحكم كما يلقي مسؤولية المنافسات بين القبائل أو بين الدول والأقاليم المختلفة . ويقول فانون : إنه حينما استولت البرجوازية الوطنية على السلطة فإنه يحدث مد مشير نحو المواقف القبلية ، ونلاحظ أن الغضب ينشئ القلب كما إن انتصار النزعات الإقليمية يزداد تفاقماً .

وبما أن الشعار الوحيد للبرجوازية هو « يجب أن نحل محل الأجانب » وبما أنها تسرع في جميع القطاعات بالاستيلاء على ما تراه حقاً لها وذلك بشغل المراكز ، فإن صغار الموظفين مثل سائقي سيارات الأجرة وبنائى الحلوى وماسحى الأحذية سيطالبون أيضاً وفي إلحاح بأن يرجع رعايا داهومي إلى بلادهم ، أو ربما يطالبون بأكثر من هذا عودة من يتمنون إلى قبائل فولي وإلى قبائل بول إلى الأدغال أو إلى الجبال .

والواقع أنه حينما سجل رؤساء الدول الأفريقية في أديس أبابا في الميثاق أن أحد أهداف هذا الميثاق هو الدفاع عن استقلال وأراضى وسيادة الدول الموقعة على الميثاق . فإنهم قد اعترفوا ضمناً بالحدود الصناعية الموروثة عن الاستعمار . وكان ذلك من جانبهم محاولة لخلق الباب أمام الصراع بين الأخوة ، ولكن كانت هذه المحاولة لحد محدود .

والهدف الثالث الذي كانت قد ارتبطت به الوحدة الأفريقية هو « الحياذ » وهنا أيضاً نجد أن الفارق بين حقيقة السياسات التي تسير عليها الدول الجديدة المستقلة في أفريقيا السوداء وبين مثالية عدم الانحياز كما يراها أصحاب نظريات الوطنية الأفريقية يظهر أنه فارق كبير هائل على ما يبدو . وعليه يجب عمل قائمة بالدول الأفريقية التي اعترفت بحكومة فرموزا (الصين الوطنية) لكي

نقدر تأثير الدبلوماسية (أو السياسة) الأمريكية . وكذا عمل قاعة بالدول الأفريقية التي اعترفت بألمانيا الشرقية ، لكي نقيس فرصة هذه الدول الأخيرة في أن تمنح معونة السوق الأوروبية المشتركة . كما يجب إحصاء عدد أصوات دول أفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية في مناقشات هيئة الأمم المتحدة بالمشكلة الجزائرية لكي نقيس درجة الثقة الممنوحة لفرنسا في عهد الجنرال ديغول ، وكذا عدد الأصوات في مشكلة الكونغولمعرفة أهمية وسائل الضغط التي تحتفظ بها بريطانيا بصفة خاصة في مستعمراتها السابقة . ولكن مثل هذا التحليل قد يبين أن الدول الكبرى اضطرت هي أيضا للتخفيف من مطالباتها .

والخطر الكامن دائما بالنسبة لكل كتلة من الكتلتين العاليتين في أن ترى عاصمة من العواصم الأفريقية تنجح إلى الكتلة الأخرى في حالة رفض الكتلة الأولى مطالب هذه العاصمة . كل ذلك سمح للعالم الثالث ولأفريقيا بالمحافظة على الأقل بتجربة المناورات ، وقد كانت تلك الحرية مخفية حتى جعلت موقف الولايات المتحدة ووزارة الخارجية الأمريكية يتطور بطريقة قاطعة وأصبحت أمريكا تسلم (وهذا تحول أساسي) بأن الحياة ليس معناها الشيوعية . وهذا بلا شك انتصار للدول النامية وللسياسة التي اتبعتها هذه الدول . ونجد الكثير من دول العالم الثالث اليوم يسود التعايش السلمي بين الفئتين من كلا الجانبين الشرق والغرب .

ومن المناسب أن نتساءل أيضاً عما إذا كان معنى الألفاظ «الحياة الإيجابية» و«عدم الانحياز» لم يتطور من وجهتي النظر المعنيتين وذلك من باندونج إلى أديس أبابا ماراً ببلجراد ، فن جهة نجد أن شدة حدة التوتر بين موسكو وواشنطن والأزمة بين بكين وموسكو قد طمست بعض الشيء الحدود التقليدية القائمة بين الشرق والغرب . ولكن الدول النامية تنزعج دائماً وبصفة خاصة من تحول آخر غير التحول الذي حدث بين نظامي الحكم الرأسمالي والاشتراكي . ونقصد به التحول الذي حدث بين دول العالم الثالث نفسها أي دول العالم المتخلف ودول نصف الكرة الأرضية الشمال . دول العصر الأبيض والتصنيع .

فقد كان سيكوتوري يقول قبل مؤتمر أديس أبابا بكثير : إننا نؤكد أن أكبر وأخطر عدم توازن يوجد في العالم ينتج دائماً من تقسيم العالم إلى أمم غنية وأمم فقيرة . ويجب علينا إذاً أن نعمل للحد من عدم التوازن هذا<sup>(١)</sup> )

(١) ورد بكتاب «الثورة الغنية والتقدم الاجتماعي» ومن المحتمل تحقيق الاهتمام الذي نراه في المحافظة على -

إن الدول الأفريقية التي لا يعلن حكامها بأنهم يدينون بالاشتراكية قليلة . ولكن الصيغ المطبقة أوحى المقترحة تختلف لدرجة كبيرة . فحتى الدول التي يتضح كثيراً أنها مستعدة لتطبيق مبادئ الماركسية اللينينية تتردد أحياناً في تأميم وسائل الإنتاج وتستمر المشاريع الكبرى الأجنبية في هذه الدول في استغلال بعض الثروات المعدنية . ولكن اتخذت إجراءات للإشراف الدقيق على التجارة الخارجية ولتخطيط الاقتصاد الوطني . فقد منحت تلك الإجراءات في هذه الدول جميع الوسائل وجعلتها توجه مجموعة الاقتصاد بحزم ودقة . فقلما ترك لهذه المشروعات الفردية سوى حرية ضيقة الحدود . ففي هذه الدول نكون بعيدين عن الرأسمالية الحرة حتى لو كانت هناك شركة ما احتكارية كبرى تقوم باستغلال معدن من المعادن . وبالعكس ففي دول أخرى تظل الاشتراكية التي يعنون تمسكهم بمبادئها في حاجة إلى تعريف وحاجة إلى تطبيق ( ١١ )

وإذا استثنينا ثلاثاً أو أربع دول سائرة في إصرار وعزم على طريق الاشتراكية الأفريقية فإن إزالة الاستعمار لم تغير بطريقة ملموسة وظاهرة البناء الاقتصادي للدول الأفريقية إلا في نقطة واحدة هي أن جزءاً من رأس المال الذي كانت تمتلكه الدولة الأوروبية المستعمرة في شركات الاقتصاد المشترك قد انتقل إلى الدولة الجديدة في أفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية . أما البناء الاجتماعي فإنا إذا صدقنا معظم المؤلفين من قانون إلى سفور فإن هذا البناء لا يبدو أنه تغير أو عدل تعديلاً كبيراً : فالقيادات السياسية والتجار والموظفون والمستخدمون مستمرون بعد إبعاد السيطرة الاستعمارية في تكوينين طبقة مميزة بالنسبة إلى الكتلة الغالبة من الفلاحين .

وقد فرض نظام الحزب الواحد نفسه في كل مكان في أفريقيا السوداء . ويرجع إلى إخصائي

---

- الشخصية والثقافة أولى البحث عن « طريق أفريق » نحو الاشتراكية ونرى ذلك سببه توازن ثقاف للحياة السياسي . وإن هذه الرغبة في التخصيص ليست وفقاً على أفريقيا وإنما نجد عند الوطنيين العرب والوطنيين الآسيويين وكذلك في ميادين غير منتظرة مثل الميدان الاستراتيجي كما يحدث عند ماوتسي تونغ الذي أهتم بتعريف خواص الحرب الثورية في الصين . فالصفات الأولى من مذكراته في ديسمبر ٣٦ الموجهة إلى الضباط ط المجتمعين في أكاديمية الجيش الأحمر تفتت النظر إلى هذا الخصوص فإن الزعيم الذي قاد « المسيرة الطويلة » بلح في هذه المذكرة بأنه لا يمكن معرفة قوانين الحرب العامة ولا حتى قوانين الحرب الثورية لايقاع الهزيمة بالعدو ويجب أيضاً معرفة قواعد الحرب الثورية في الصين و ماوتشه تونش : الحرب الثورية ص ١٤ .

( ١ ) أننا نعرف مقالاه « بين ييلا » بلهجة تعجبية : إنا اخفنا بين اشتراكية الأب فولير بولو وبين اشتراكية فيدل كاسترو .

علم الاجتماع البحث عن الأسباب العميقة التي دعت أفريقيا السوداء إلى أن تجمع إجماعاً يكون شاملاً على هذا النوع من الحكم . وربما وجد أخصائيو علم الاجتماع في ذلك الأمر أصداء نظم تقليدية مختلفة .

وعلى كل حال فإن من التطلب الديني عند بعض الزعماء الأفريقيين يبدو أن تفسيرهم يوازي عقدة الأب هذه ، حسب تعبير جان لاکوتير وجان بومير وهو ما يردد صده «توم مبوبا» ويؤكد ضرورة أن يتزعم الحزب الواحد «أب بطل» وذلك في سبيل تماسك الحزب<sup>(١)</sup> .

ترى سيقال إن أفريقيا المحكومة بالحزب الواحد هي أيضاً أفريقيا المؤامرات ؟ قد يبدو التفسير الذي يوحى بمثل هذه الملاحظة وكأنه يغري لأول وهلة أعداء نظم الحكم المطلق . ومع ذلك فإن هذا التفسير لا يراعى جميع العوامل القائمة . فقد عرفت المغرب مع وجود دستورها الذي يسمح بتعدد الأحزاب المؤامرة (مؤامرة ١٩٦٣) وكذلك الكاميرون قبل إعادة تجميعه في عام ١٩٦٢ ، وعلى كل حال فقد بدت هذه المشكلة مزعجة في نظر الحكام الأفريقيين حتى جعلتهم يسجلون في ميثاق الوحدة الأفريقية بنداً «يدين الاغتيال السياسي وكذلك النشاط الهدام الذي تمارسه دول مجاورة أو أية دول أخرى» .

وهكذا نظل الشقة بعيدة بين الأهداف الأربعة التي كانت الحركة الوطنية الأفريقية قد رسمتها لنفسها (الاستقلال - الوحدة - الحياد - الاشتراكية) والنتائج التي أمكن الحصول عليها . . . ويجب أن نلاحظ أنه من بين رجال الدولة الأفريقيين الذين يديرون اليوم شئون بلادهم لم يكن بعضهم قد وافق على هذه الأهداف ولا حتى على الهدف الأول (الاستقلال) مع أنه الهدف الذي لم يكثر الجدل حوله .

فكان السيد «هوفويه بواني» يتحدى السيد نيكروما في اللحظة التي كان هذا الأخير يختار الاستقلال ، فقد كان يؤكد أن المحافظة على الوجود الفرنسي أجدي بكثير لساحل العاج من تحرر غانا . وكان أمراء قبائل «البول» في شمال نيجيريا غير مسارعين بل أقل حماساً من الزعماء السياميين في الشرق والغرب إلى وجود الاتحاد الفيدرالي ليشرقوا من السيطرة البريطانية .

ولكن كان من العجيب حقاً أن يتحقق في بضع سنوات برنامج واسع ومعقد مثل برنامج تحويل الاقتصاد والمجتمع مع القيام في نفس الوقت بمهمة الوحدة وهي مهمة ضخمة . بينما لم تتحرر أفريقيا كلها بعد من الاستعمار .

(١) ورد ذلك في كتاب «وزن العالم الثالث» .

وأخيراً في عالم اليوم حيث تشابك التبعية وحيث وزن أفريقيا وحدها لا يزن كثيراً<sup>(١)</sup> . فليس من العدل في شيء أن نحمل أفريقيا وحدها مسئولية مصيرها . فالدول الكبرى الاستعمارية السابقة والدول غير الاستعمارية قد لعبت أيضاً ولا تزال تلعب دوراً ضخماً في تشكيل ملامح أفريقيا الجديدة . فهذه الملامح لم يشكلها الأفريقيون وحدهم بل مستمر آلاف التأثيرات وآلاف الظروف في تكوين هذه الملامح ، فالاستعمار الجديد ما زال بعيداً من أن يكون شعاراً فقط .

ولكن إذا كانت أفريقيا تتحمل عبء العالم الذي يحيط بها - ولعلها تتحمله أكثر من غيرها من القارات الأخرى - فإنها من ناحيتها تؤثر على هذا العالم . وكان تحرر أفريقيا أحد أسباب ثورة اجتماعية كبرى في إحدى الدولتين الكبيرتين وهي الولايات المتحدة . في اللحظة التي ولدت فيها أفريقيا الحرة وجد أبناء الزنوج في أمريكا الشمالية معنى الكفاح ضد التفرقة العنصرية . ورد الفعل المضاد هذا يعتبر تسديد دين ، فإن المثقفين الأمريكيين هم الذين باركوا حركة الوحدة الأفريقية الوليدة أمثال ماركوس جارف و بوبكر . ت . واشنطن ودي بوا . وكان جورج بادمور أصلاً من جاميكا وولدت « الحركة الفكرية الوطنية الزنوجية » في جزر الأنتيل وفي جوبان الفرنسية في مؤلفات سيزر وداماس .

وعلى هامش التيارات التاريخية الكبرى توجد دائماً ظاهرة لها معناها وهي أن طالباً أسوداً من نيجيريا يتلقى العلم في شيكاغو يرجع إليه الفضل في وضع التحاليل الأولى للحركة الإسلامية بين السود في الولايات المتحدة .

• • •

---

(١) نذكر عنوان كتابين للكاتب شارل هنري فافرو « وزن أفريقيا و أفريقيا وحدها » .

## الخاتمة

إذا عرفنا الحركة الوطنية الزنجية على أنها حركة الأفكار التي عبرت عن القومية الوطنية الأفريقية في الأدب وفي ميدان العلوم الإنسانية وعلم أصول السلالات البشرية والتاريخ خاصة ، فإنه يكون من الملائم أن نتساءل عن الدور الذي لعبته الآن هذه الحركة وقد تم الحصول على الاستقلال ، فهي المشكلة التي لم يتأخر في عرضها محللو الأدب والعلوم والفن الزنجي المعاصرون أمثال سارتر وجاهن وكستلوت . فقد رأى سارتر في الشعر الزنجي شعراً منحازاً كما رأى فيه السلاح السحري الموجه ضد السيطرة الاستعمارية وقد وجه هذا السلاح كتاب أحسوا بفقر سلالته . ولكن الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية لم تكن بالنسبة لسارتر سوى مرحلة من المراحل ، ويرتكز مؤلف مقال إله الموسيقى الأسود على الاعتقادات الماركسية التي يدين بها الكثيرون من الشعراء الزنوج وأيضاً على رغبتهم في تخطي مفهومات العنصر البشري لكي يحققوا ذاتية كفاحهم البروليتاري ، فكان سارتر يرى في شعر الكفاح الزنجي مرحلة انتقالية ، فيقول في مقاله ( إله الموسيقى الأسود ) تبدو الحركة الفكرية الوطنية الزنجية وكأنها فترة الضعف في عملية تدرج جدلي ، فالنظرية هي التأكيد النظري والعمل لسمو الرجل الأبيض ، ومعارضته الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية لهذه النظرية يعتبر اللحظة السلبية . ولكن تلك اللحظة السلبية ليس لها كفاية في حد ذاتها ، والسود الذين يستخدمون هذه اللحظة يعرفون ذلك تماماً . إنهم يعرفون أنها تهدف إلى إعداد النص أو إلى تحقيق معنى الإنسانية في مجتمع بلا أجناس بشرية . وهكذا نشأت الحركة الفكرية الوطنية الزنجية لكي تهدم نفسها ، فهي أمر عابر وليست نهاية ، فهي وسيلة وليست غاية أخيرة .

وقد اختتم هذا الفيلسوف الوجودي دراسته بهذه الكلمات : ما عساه يحدث لو أن الزنجي أوقف حركته القومية الوطنية لصالح الثورة ولا يعتبر نفسه سوى بروليتاري ؟ وماذا يحدث لو لم يعد يعرفه الغير إلا بمجائته الموضوعية ؟ أنه يرغم نفسه على استيعاب فنون البيض لكي يكافح وأحياناً البيض . ترى أينضب معين الشعر ؟ أو أن النهر الأسود الكبير سيصبح بالرغم من كل شيء البحر الذي يصب فيه باللون الأسود ؟ هذا غير مهم . فلكل عصر شعره . وفي كل عصر ترفع ملابسات التاريخ أمة

وعنصراً بشرياً وطبقة النقيض على الشعلة التي تنير للغير ، وذلك بخلق المناسبات التي لا يمكن التعبير عنها أو تخطيطها إلا بالشعر . وثارة يسير الاندفاع الشعري مع الاندفاع الثوري وطوراً يختلف اتجاه الاندفاعيين ، فلنحى إذا اليوم القرصة التاريخية التي ستتيح للمود أن يصرخوا بشدة صرخة الرغبة الكبرى والتي مترعرع كيان العالم أجمع<sup>(١)</sup> .

وتعيب « ليليان كستلوت » على سارتر استخدامه الاصطلاح « إن هذا لا يهم » كما تعيب عليه أيضاً أنه يعتقد أن سبأني يوم يصبح فيه تمجيد الحركة الوطنية القومية أمراً لا داعي له ، فهذه الكتابة تعتبر الحركة القومية أمراً مهماً وأهميتها لها طابع الاستمرار فتقول : إن القيم الثقافية قائمة دائماً حتى عند الكتاب الذين يستخدمون لغة أجنبية غير لغتهم الأصلية فقد احتفظت قصائد طاغور بكل جمال وحكمة الهند ، وكذا كتاب « النى » للكاتب خليل جبران نجد أنه قد تشبع بتصوف الشرق . ذلك لدرجة أن المؤلفات بروحها وبأسلوبها سواء أكانت مكتوبة باللغة الفرنسية أو بالإنجليزية فهي إنما تنتمي إلى الأدب الوطني القومي لمؤلفيها وليس إلى أدبنا . فالروح الزنجية التي تفهم هكذا هي الروح الزنجية في كل العصور وليست في حاجة إلى تخطيط كما زعم سارتر وغيره ممن تؤثر فيهم الروح السلافية أو العربية أو الفرنسية وتختتم الكتابة حديثها بالاستشهاد المثالي من الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه « أليون ديوب » في مؤتمر روما : إننا لا نستطيع أن نجعل لغتنا كاللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو البلجيكية أو البرتغالية وأن نترك أحجاماً لها صفاتها الخاصة من عقريتنا نتركها تقضى عليها لصالح لغة الغرب التي بدأت تزول وتنضمر . فإننا سنجهد لكي تصنع لهذه العنصرية مصادر تعبير تتلاءم مع المهمة الملقة على عاتقها في القرن العشرين ) .

وقد أهتم « جانبا نبرحاهن » - الذي لمس سرعة المظهر السياسي للأدب الزنجي المعاصر - بتعريف معايير « الثقافة الزنجية الجديدة الناهضة » وهو يريد أيضاً أن تكون هذه الثقافة مساهمة في الفكر العالمي ولكنه يصر على أن تلعب هذه الثقافة دوراً واضحاً ومهماً أكثر من دورها في تزويد العالم بصفة أصالة هذه الثقافة . إن الثقافة الأفريقية ستكون عاملاً من عوامل التوازن الذهني والأخلاقي ذلك لكونها مختلفة في عنصرها عن الثقافة الغربية وليس فقط لأنها ثقافة بين ثقافات شعوب أخرى . ويرى « حاهن » أن العالم الغربي يمكن أن تعتبره قد تضرب معينه بفعل الحضارة الآلية التي تضحي بكل شيء في سبيل المادة بينما يظل المعنى هو المهم في الفلسفة الأفريقية ، وهذا المعنى هو الذي يصبغه الخالق على المادة ، فالشيء ليس له معنى إلا في الحدود التي يمنحها الإنسان

(١) يشير سارتر إلى سيزير في كتابه ( الأسلحة السحرية ) ص ١٥٦ .

له . إن مثل ذلك المفهوم ضرورى للروح الغريبة كنوع من الوقاية ضد المادية ، ويؤكد حاهن مستشهداً بسنغور في قوله : يستطيع الزنحى أن يعلم أن عالمنا الذى تقنله الآلة يستطيع وحده أن يعلمه الاتزان والبهجة<sup>(١)</sup> .

لقد رأينا كيف أن الاستقلال قد حصل عليه عملياً في كل مكان من أفريقيا ، ولكنه استقلال هش جداً وخاصة فيما يتعلق بالاقتصاد ، ولما تم الوحدة بعد ، وقد قبل الحياض الكثير من التسيويات ، ولا تزال الاشتراكية في معظم الحالات غير مكتملة البناء . وإذا كانت الأسس قد تم إرساؤها إلا أنه لا يزال هناك الكثير من البناء .

فإننا نستطيع أن نتخيل في هذه الظروف ازدهار أدب وازدهار بحث علمي يظهران ولهما هدف واحد هو تكلمة مكاسب التحرر ، وعلى هذا يمكن تعريف النظريات الأدبية ومجالات البحث العلمي عند الجيل الثاني من المثقفين الأفريقيين .

ويمكن إسداء خدمة لقضية الوحدة الأفريقية بطريقة فعالة وذلك عن طريق أخصائين علم أصول السلالات البشرية الذين يهتمون خاصة بالكشف عن المبادئ المشتركة بين القبائل الأفريقية بعد تخطى المعتقدات والنظم الخاصة . بكل قبيلة . كما يمكن خدمة تلك القضية عن طريق المؤرخين الذين يعملون من الغزاة العسكريين وكأنهم محمومون للأراضى ويحلونهم في مكان الصدرة في تاريخ أفريقيا وروادا للولايات المتحدة الأفريقية القادمة .

وبنفس الطريقة التي يولد بها الأدب بعد كل حرب يقص آلام الناس وأعمال بطولة المحاربين المجيدة فإننا نستطيع أن نتخيل قصة روائية زنجية تمجد ذكرى الكفاح من أجل الاستقلال . أما بالنسبة إلى بناء الاشتراكية فإننا نستطيع التنبؤ بخلق أدب كفاح يدين البعض من أجل وصوليتهم كما يظهر انتهازية الآخرين واستغلالهم ويكشف العادات والتقاليد التي تعوق النمو الاقتصادي .

وسيعمل أخصائيو علم أصول السلالات جاهدين على اكتشاف النظم التقليدية وما فيها من صيغ استغلال الجماعة . تلك الصيغ التي تسيق النظام الجماعي المزمع إرساء أسسه ، كما يكشفون التقاليد والعادات والصيغ التي يمكن تمثيلها مع مطالب أفريقيا الحديثة الملحة .

وفعلا قد بدأ البعض هذا العمل ، فاهم شيخ «أنتا ديوب» باكتشاف الملامح المشتركة بين مختلف المجتمعات الأفريقية . كما سرد «سامين عثمان» تاريخ إحدى حركات الإضراب التاريخية التي حدثت في أفريقيا الغربية الفرنسية . واكتشف فرانتر قانون في أسلوب الخطابة الأفريقية التي تؤدي

(١) ورد في كتاب حاهن بتر حاهن «الناس والأسلاف والأمة» .

بالحركات «عادة قريته من النقد الذاتي»<sup>(١)</sup> كما حاول «مامادوبا» تحطيط نوع من الجمعيات التعاونية من مفهوم الملكية لدى العشائر<sup>(٢)</sup>. كما بحث «نيان» ملحمة «سونديانا» إلى الحياة وكذا بايكيمل ملحمة «رياح».

وإذا فأمامنا حقل كبير لا يزال بكراً ، ولكن عرف بعض الرواد كيف يفتحون الطريق ويبقى بعد ذلك المهمة التي تقع على عاتق الفوج الثاني الذي يأتي بعد الرواد .

وكان سارتر قد تنبأ بأن كفاح الرجل الأسود سيرتك المكان لكفاح الإنسان المكافح ولم تتجه معركة المثقفين الأفريقين في ذلك الاتجاه حتى الآن وليس ذلك بسبب أن كثيرين منهم قد وقفوا مواقف معادية للشوعية بل لأن الكثير من الكتاب الماركسيين (وهذا مبعث دهشتنا) نجدهم يهتمون ببناء الاشتراكية خاصة بأفريقيا . ويلخص (جورج بالاندييه) هذا الاهتمام (بخلق اشتراكية خاصة بأفريقيا) بأن بين أن الماركسيين الأفريقين لم يتقبلوا الأيديولوجية السوفيتية إلا لكي يستفيدوا عند القيام بعملية تدوين وجرم نهاي لها<sup>(٣)</sup>.

كما يتمسك مسيحيو القارة السوداء .. على طبع عقيدتهم وإيمانهم - بطابع خاص ، ويظهر هنا كل تاريخ الأنبياء السود والكنائس الأفريقية . ولكن بنفس هذا الاهتمام بالمحافظة على الشخصية الأفريقية يتضح هذا أيضاً لدى المسيحيين والبروتستانت ولو على أقل تقدير من حيث الرغبة في وجود حجر زاوية «لرسالة المسيح في معتقدات الأسلاف» .

كما بين هذا الاهتمام بالمحافظة على الشخصية الأفريقية الاجتماع الذي عقد في كمبالا عام ١٩٦٣ بين مندوبي الكنائس الأنجليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية في شكل مؤتمر للكنائس الأفريقية بشأن ترويض أفريقيا الجديدة بكنيسة جديدة خاصة بها .

فيجب على المثقفين الأفريقين السود أن يمنحو المجتمع الحديث (الذي يسير على وتيرة واحدة بفعل الحضارة الآلية التي جردت من الإنسانية) الانفعال الرنجي الذي يتحدث عنه سنفور ، وهي رسالة يجب أن تعيش بعد الظرف التاريخي الذي آخى الفلسفة الرنجية . ولكن إذا كان يعوزنا الحاضر على النهضة الثقافية الذي تتطلبه السياسة فهل سيكون في الإمكان المحافظة على الروح التي كانت تحرك ونبات الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية ؟ .

(١) ورد في كتاب «المنعوتون في الأرض» .

(٢) ورد في كتاب «مساهمة في دراسة الحركة التعاونية في أفريقيا السوداء» .

(٣) ورد بمجلة «أفريقيا الفتية» عدد ديسمبر ٦٢

إن الحجج التي يقدمها «جاهن» لإبراز أهمية ما يأتي به الفكر الأفريقي في سبيل مفهوم للحياة يكون أكثر اتزاناً تبدو ملزمة وأقل بكثير من الحجج التي تؤدي إلى الكفاح السياسي والمقاومة على مساوئ الحكم الاستعماري .

فحينما يطلب سيزير بالآ يتحمل الزنجي مسؤولية المهن والأعمال الفنية في أشعاره المشهورة فإنه يفعل ذلك لكي يعلن أن آلامه قد جعلت منه مخلوقاً إنسانياً أكثر من الآخرين . ويعتبر جاهن أن التقاليد الموروثة عن الأسلاف هي مصدر هذه الإنسانية الكثيرة الحرارة والتي يتصف بها الزنجي ، وتعتبر سيزير أن سبب ذلك هو ماضيه كعبد رقيق أو مستعمر . ويعتبر «كان» أن سبب ذلك مرجعه عقيدته الإسلامية . ولكن هؤلاء المؤلفين الثلاثة متفقون على أن الزنجي الذي لديه المعنى الإنساني وينحس أكثر من غيره عنه أن يخرج رسالته إلى العالم . يتلقى الرجل الأبيض هذه الرسالة مقابل ما يقدم له في المجال الفني وبذلك تعتبر خطوة في مخرج الحضارات . هذا الذي يوحى أيضاً بالأفكار إلى اليون دبوب وسففور .

تلك هي الأفكار التي أثارها مشكلة مستقبل الحركة الفكرية الوطنية باختصار .

### حركة فكرية زنجية موجهة :

كما يلتفت النظر أن سارتر وجاهن وكسنتوت لم يتصوروا الآفاق التي يمكن أن يقتحمها أو تعلقها بالنسبة للأدب إقامة نظم حكم تكون فيها الدولة مشرفة على الفكر العلمي وعلى النشاط الفني . بينما كانوا جميعاً يتساءلون عن مستقبل الأدب الزنجي . وهذا افتراض من المحال استبعاده خاصة وأن الأمر يعتبر حقيقة بالنسبة لكثير من الدول . وتتميز تلك المرحلة الثانية للحركة الفكرية الوطنية الزنجية بعدة خصائص أساسية تتميز بها عن الحركة التي سبقتها . في حين أنها تستمر في نيل الوحي والإلهام من نفس المواضيع . يعوزها أولاً الحجم الذي كان أساسياً حتى الآن . إنه الحجم الذي يسبق عليها صفة الرائد والمكافح . فإن المثقفين الأفريقيين وهم في خدمة دولة أفريقية لن يحشوا بطش أو وقع الإدارة الاستعمارية ، بل سيخفون التشجيع الرسمي ، وحتى إذا كانت مؤلفاتهم متفاعة من عقيدة قوية كمثل العقيدة التي كانت تحرك المثقفين المتحازين في عهد ما قبل الاستقلال فإنه لن تكون لهم هالة محاربي العصابات . فهل نتوقع أن يكون إنتاجهم أقل أهمية وكذا مساهمتهم في بناء أفريقيا أقل فاعلية .

يؤكد «مغاليلي» أن النخبة المثقفة في غانا وفي نيجيريا أصيبت بالبرجوازية لأن الشهادات

الدراسة التي حصلت عليها هذه النخبة تدفعها دائماً إلى المراكز القيادية بينما يظل المثقف الأسود في جنوب أفريقيا من الكادحين لأن سياسة التفرقة العنصرية تحول دون الوصول إلى المناصب الكبيرة الموقوفة على البيض<sup>(١)</sup>.

وهكذا في أفريقيا الغربية بدون تأثير الاستعمار يمكن أن تصبح الحركة الفكرية الوطنية هوية فنانين ، ونجد سبب وجود هذه الهوية (اللغة) يتمثل في حب الذات الذي يجعل المرء يرضى عن نفسه في حين أنه ينمو في أفريقيا الجنوبية التي أزيلت عنها القبلية - ينشأ وينمو أدب بربوليتاري له قوته الجسمانية (العضلية) كما كان يقول قانون .

ومهما يكن الأمر فإننا نأسف على الاندفاع التلقائي والجنوح إلى المخاطر الذي كان يشتمل بها الإنتاج الأدبي المنحاز في كفاح ضد النظام القائم . وأتأنا نستطيع أن نأمل أن يكون البحث العلمي مثمراً أكثر حيناً تكف عن إعاقته المزايم الباطلة الموروثة التي تعتنقها السلطات الأجنبية . ويمكن أن يقاس عمل المثقف الناصر من موقفه المحفوف بالخطر . كما يصح أن يفسد اطمئنان المثقف عمله حين يشعر بالهزيمة . ومن ناحية أخرى المجازفة والتحدث عن استكانة المثقف الأفريقي في بلده المستقل . ونستطيع أن نتخيل العكس ، فإن مثقفي الجيل الجديد لن يرضوا جميعاً عن الطريق التي رسمت لهم . ومن المحتمل أن يشير معنى التقيد في نفوسهم مختلف الطرق الممكن سلوكها والتي توجد أمام دول أفريقيا المستقلة . وأن الجدل الذي قام به رجال السياسة سيكون له بلا شك صدها في الأدب وفي البحث العلمي .

ويتضح لنا من الدلالات الأولى أن طريق التحول لابد أن يقع وفق ضرورات تعليمها الأيدولوجية وستكون أقل من حدوث ضروريات تعليمها المعايير الجغرافية . فالكتاب الأخير للكاتب «سامين عثمان» وهو عبارة عن مجموعة قصص بعنوان «قصص من فولتا» يعتبر هجاء موجهاً إلى البرجوازية السوداء الجديدة التي تحكم هذه البلاد الآن<sup>(٢)</sup>.

#### الموجة الأفريقية الجديدة :

قام حديثاً السيد/جان بير نديباي بعمل بحث بين الطلبة الأفريقيين في فرنسا . ويعطينا هذا البحث الإجابة على الأسئلة التي يمكن أن نساألها بخصوص مستقبل الحركة الفكرية الوطنية

(١) ورد في كتاب صورة أفريقيا .

(٢) كما كان يبين ذلك ناقد مجلة (الثورة الأفريقية) في عدد مارس سنة ١٩٦٣ .

الأفريقية<sup>(١)</sup> .

لقد سأل هذا الشاب السنغال (وهو أخصائي في علم الاجتماع) مجموعة مختلفة يبلغ عددها نحو ثلاثمائة طالب أسود تقريبا في باريس وفي الأقاليم ، وذلك من مجموع الطلاب السود في فرنسا البالغ عددهم حوالي خمسة آلاف عام ١٩٦١ - ١٩٦٢

المجموعة الأولى من الأسئلة توضح لنا معرفة ما إذا كان الجيل الجديد من المثقفين الأفريقيين يرى أولا يرى أن الحركة قد انتهت عمليا بالحصول على الاستقلال . لم يكن الرد بالإيجاب . وفي الحقيقة كان السؤال « هل تعتقد أن هناك صراعا بينكم وبين حكامكم ؟ » فقد كانت الإجابة بنعم ٦٣٪ من الطلبة الذين وجه إليهم السؤال . إذاً فما هو سبب عدم الرضا هذا ؟ يرى ٢٧٪ من الطلبة الذين يجدون أنهم في صراع مع حكامهم أن سبب ذلك هو أن هؤلاء الحكام يخونون قضية الاستقلال ويقتنعون لسياسة الاستثمار الحديد و يرفضون التضامن والوحدة الأفريقية ، كما أن ١٨٪ منهم يرى أن سبب ذلك يرجع إلى أن الحكام يشجعون إرساء أسس طبقية برجوازية ويتبعون سياسة طبقية موجهة ضد الشعب وضد التقدم<sup>(٢)</sup> .

وهكذا إذا ظل طلبة اليوم داخل حدود إخلاصهم لمتقدرات شبابهم فإننا نستطيع أن نتصور أن يكون عمل الجيل الجديد هذا في التاحيتين الأدبية والعلمية أكثر انخياراً عما كان عليه عمل سابقيهم في نفس الميدان . فالواجب يقتضي أن يكون عمل الجيل الجديد في الأدب والبحث العلمي كعمل المؤلفين الأوائل من مؤلّي الحركة والوطنية على الأقل . إلا إذا أحسن رجال السياسة الحاليون سياستهم وأصلحوا منها (وكانت سياستهم موضع الاستهجان) أو حل محلهم آخرون يعرفون كيف يحسنون التصرف .

(١) كتاب الطلبة السود في فرنسا « باريس دار النشر » الحقيقة الأفريقية سنة ١٩٦٢ .

(٢) أن الصراع بين الطلبة الذين هم خارج أوطانهم وبين حكامهم أصبح ظاهرة مألوفة ويبدو أن هذا الصراع تذكبه أحيانا المثافة المكسحة التي تدور في هذا الميدان بين الكتلة الشيوعية والكتلة الغربية . وقد لفتت النظر إلى هذه المشكلة للمقارنات التي قام بها الطلبة الأفريقيون في عدة بلاد من الكتلة الشرقية . وأنا لنذكر الكلمة التي قالها الرئيس « هوفيه بوابتي » ( ابعثوا طلبتكم إلى باريس ليعودوا شيوعيين وأبعثوا بهم إلى موسكو ليعودوا رأسماليين ) وقد عالج هذا الموضوع طالبان غانيان : الأول جيلي أوزي في كيب صغير عنوانه ( أفريق في موسكو ) نشر بمجموعة الدراسات السوفياتية في باريس ويشير هذا الطالب على الهداية التي ترمى إلى ترويج فكرة أن الطلبة الأفريقيين في روسيا ضحية للتفرقة العنصرية ، أما الطالب الثاني فهو « عمانويل جون هيني » الذي يهاجم الشيوعية الصينية في كتابه « طالب أفريق في الصين » .

فإذا تكون الأهداف التي سيحددها الجيل لنفسه على ضوء مواطن العجز التي يستجيبها عند رجال الدولة الحاليين ٢ .

تظل الفكرتان المثلثتان للوحدة والاشتراكية لها المكانة الأولى عند الجيل الجديد فيها كل ما يشغله ، وهناك سؤال : هل تعتقد أن الدول الأفريقية في الغد ستكون مجزأة كما هي اليوم أم تفضل أن تكون متحدة على نظام الاتحاد الفيدرالي أو على نظام ولايات متحدة هذه الإجابة اختار ٣٪ فقط منهم الصيغة الأولى (المجزئة) ، ٣٤٪ الصيغة الثانية (الاتحاد الفيدرالي) و ٥٣٪ للصيغة الثالثة (الولايات المتحدة) .

ويشجع عدد قليل جداً من الطلبة السود وجود نظام اقتصادي رأسمالي . فزى أن ٧٪ من الطلبة الذين شلوا يمتنون في الحقيقة أن يكون اقتصاد بلادهم اقتصاداً حراً مع سيطرة المشروعات الفردية . ومع ذلك وبالرغم من أن غالبية هؤلاء الطلاب من أنصار الاشتراكية إلا أن آراءهم موزعة بالتساوي تقريباً بين مختلف فروع الاشتراكية هذه .

يفضل ٣٨٪ منهم الاشتراكية الكاملة (الاشتراكية السوفيتية والصينية) ، ٣٠٪ الاشتراكية التي تؤمن مصلحة الفرد ومصالح الجماعة ، ٢٠٪ تفضل الاشتراكية الحرة التي تعتنقها الدول الاسكندنافية .

كما نجد دلالات أخرى مسجلة في استفتاء ج . ب . لا تقل وضوحاً عن الدلالات السابقة ، وذلك فيما يتعلق بالضدى الذي تصادفه الأيدولوجية الماركسية في نفوس الطلبة الأفريقيين . فتأتى روسيا والصين الشعبية في مقدمة البلاد التي يعجب بها الطلبة وأن المؤلفين الثوريين والماركسيين هم أصحاب الأثر الأكبر في نفوس هؤلاء الطلبة الذين وجهت إليهم الأسئلة . ولعله من الأهمية بمكان أن نلاحظ أن ٥٢٪ من هؤلاء الطلبة مسيحيون (كاثوليك أو بروتستانت) و ٣٢٪ مسلمون وأن الآراء الدينية قد جاءت مع ذلك متباينة . غير أن إقامة هؤلاء الطلاب بفرنسا قد جعلتهم أقل تمسكاً وأقل تشدداً في هذه الناحية الدينية عما كانوا عليه فيما مضى . . .

ولهذا فإننا نستطيع أن نستنتج من الإجابات على أسئلة عالم الاجتماع السنغالي المذكور أن الشعارين الكبار للوطنية الأفريقية : الاستقلال والوحدة : سيظلان صالحين عند الأجيال الأفريقية الجديدة .

وتتلاقى الاشتراكية عدداً ضخماً من الأنصار ، ولكن الإجابات في هذا المضمار تظل متنوعة .

وأخيراً فإن الأسئلة لا تسمح بأن تكشف بوضوح ما يمكن أن تكون عليه مكانة الحياء وعدم الانحياز .

ومن العسير أيضاً إيضاح ما إذا كان مستمر تمجيد الحركة الفكرية الوطنية كسلاح للكفاح (برغم أن هذا السؤال لم يطرح بعد) والبيان الوحيد الذى وجدناه فى هذا الخصوص كان بفضل الكتاب الزنوج الذين ساهموا أكثر من غيرهم فى معرفة الثقافة الزنجية الأفريقية ، وفى رد الاعتبار لهذه الثقافة « فىأتى سيزير فى المقدمة ثم يليه سنفور وشيخ أناديبوب حسب النسبة المئوية التالية : ٤٢٪ لـ سيزير ٣٨٪ لـ سنفور ٣١٪ لـ شيخ أناديبوب . كما يجب أيضاً على أمثلة « جان بيرندباى » على رأى الطلبة الأفريقيين اليوم عن الدولة المستعمرة السابقة بعد أن زال الاستعمار . وعموماً فإن حكمهم فى غير صالح الدولة المستعمرة طبعاً بينما تحتفظ فرنسا بعلاقات ودية مع مستعمراتها السابقة على صعيد الحكومات .

فهل يجب أن نسلم فى هذه الظروف بأن المراح التى سببها الاستعمار لم تكن فى النهاية عميقة جداً ذلك لأنها التأمت سريعاً . ٢ سيكون حكماً فى هذه النقطة مجحلاً للغاية . . . فالملوثات التى أشرنا إليها طوال هذه الصفحات تذكرنا بعمق الإذلال والإهانة التى وجهت للمستعمر . مما لا شك فيه أن بعض التجاوز فى التعبير عند المثقفين الأفريقيين لم يكن ليمليه عليهم الاقتناع فحسب ، بل وأملته أيضاً الإرادة (التكيفية) . فبند بدء المعركة لم يكن من الممكن جعل العدو يتشكك فى جدية هذه المعركة وذلك لأن عالم الاستعمار ذو وجهين قطعاً ، فالشر يقف فى جانبه (فى جانب أوروبا) والخير فى جانب أفريقيا .

ولكن هذا التجاوز والمبالغة فى التعبير لم تكن وفقاً على المثقفين الأفريقيين وحدهم ، بل كان نتيجة رد فعل وإجابة على المبالغة التى يعمد إليها المعسكر الأفرى هذا ما كان يشعر به المرء الأفريقى بدرجة خطيرة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه من النادر أن يكون مؤلفو الحركة الفكرية الوطنية قد عبروا عن رفضهم التسلم بأى عنصرية معادية للبيض فى أى وقت وفى أى مكان . فقد عبروا دائماً أن تسود الأخوة بين البشر .

واليوم وقد أصبحت أفريقياً حرة أو بالأحرى أصبحت متحررة من الاستعمار المباشر فإن طابع الحركة الفكرية الوطنية تجاه العالم الأبيض (ذلك الطابع الذى كان غالباً ما يتسم بالمهجوم وخاصة فى معمعة الكفاح بينها) وكان تمجيد القيم الزنجية مظهراً من مظاهر احتجاج شعب مغلوب على أمره) كان هذا الطابع جزءاً من سبب وجوده . ويجب على الجيل الأفريقى الذى لم يعرف الاستعمار

أن يتخذ موقفاً أكثر صفاء تجاه العالم الأبيض .  
ولكن . . . ( وهذه الكلمة . . . ولكن لها أهميتها ) هذا الجيل الجديد قد اقتات بأدب آباءه  
الأولين . وسيظل كفاح الجيل الجديد أمداً طويلاً وسيظل موضع اعتراضه وفخره بل وأمله له .  
فلا يجب أن تناسى ذلك عند البدء في السير في طريق صداقة جديدة . فالاهتمام المفاجئ  
بأفريقيا الآن قد يعتبر وقوفاً متأخراً للغاية إلى جانب قضية الحرية الأفريقية كما يمكن أن يؤول الاهتمام  
الزائد والرعاية الصارخة الذي يسارع بالسحابة بالنصائح الصادرة من قبة تجربة عالية يمكن أن يؤول  
هذا إلى اهتمام فيه كثير من الأنانية وعن وصاية أبوية ملحة . وأن مثل تلك المواقف تثير الشكوك  
الدفينة الكامنة .

فلتهض شعوب المستعمرات السابقة حيث سالت الدماء غزيرة ، ولتهض ببطء من أثر الجراح  
العائرة العميقة . وعلى أوروبا أن تتغاضى وتبدو مستعدة في يسر لتناسى ذكريات قديمة معينة (١) .

(١) كان ذلك ملخص الخطاب الذي ألقاه « باتريس لومومبا » رداً على خطاب الملك بودون يوم إعلان  
استقلال الكونغو . أنظر كتاب « هورو لومومبا » للكاتب سيرج ميشيل ص ١٧٥ .

|                |                    |
|----------------|--------------------|
| رقم الإيداع    | ١٩٧٨/٥٠٩١          |
| الترقيم الدولي | ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٥١٦-٢ |

١٧٢/٧٧ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)